الحرب الروسية الأكرانية

دراسة فيما وراء الكواليس

تأليف مهدي زريق

مدخل

لست من رواد نظرية المؤامرة العالمية التي تدعي كون التاريخ السياسي والاقتصادي وحتى الفكري موجه من طرف قوة خفية قد تكون عائلة أو شركة أو مجموعة من الأثرياء ورجال الاعمال، يعملون في الخفاء من أجل تنفيذ أجندة معينة والسيطرة على العالم. هذه الرؤية اللاعلمية التي تفتقر إلى أدنى دليل مادي، تلقى رواجا ليس في العالم العربي والإسلامي فحسب بل وحتى في العالم الغربي المتقدم الذي يدعى أنه حامل لراية التقدم والمدافع عن الحريات وحقوق الإنسان. لا أنكر أن المؤامرات موجودة والتاريخ الحربي دليل ساطع على ذلك، ولكن يوجد فرق بين مؤامرة كونية تقود العالم منذ أن أنشأ الإنسان الحضارة إلى اليوم، ومؤامرة جزئية تحاك من طرف الساسة والحكام والعسكر خلال فترة زمنية معينة من أجل الوصول إلى هدف محدد وتحقيق مصالح اقتصادية واستراتيجية. إذن المؤامرات موجودة مما لا شك فيه، ولكن المشكلة تكمن في قراءتنا لها والتعاطي معها، وسنكشف في هذا الكتاب الطريقة التي تحاك فيها المؤامرات في العالم الجيوسياسي والاستراتيجي. إن الحرب أمر مشين ومكروه ومع ذلك فالتاريخ الإنساني حافل بالحروب، والحروب هي نقيض التفاهم والإنسجام وغياب كلي للعلاقات المبنية على الحوار والتعاون بين الناس، لكن ما الذي يفسر وجود الحرب في حد ذاتها ؟ ما الذي يفسر العداء واللاتفاهم بين البشر على مر التاريخ ؟ هل بلغت هذه العداوة إلى مستوى أصبح فيه البشر غير قادرين على التعايش وكل طرف يتربص بالطرف الآخر ليفتك به ؟

إن الحرب في الحقيقة ليست سوى امتداد للسياسة كما يقول الفيلسوف والمنظر العسكري البروسي كارل فون كلاوزفيتش :« الحرب هي استمرار للسياسة بطرق أخرى ». إن مقاربة كلاوزفيتش فريدة من نوعها جديرة بالأخذ بعين الاعتبار والاعتماد عليها أثناء دراستنا للحروب، لأن الحرب ليست غاية في حد ذاتها إنما وسيلة لتحقيق غاية، فالحرب هي جزء من السياسة، والحرب يجب أن تنتهي في آخر المطاف بنوع من الاتفاق او المعاهدة السياسية. إن الحرب ليست نتيجة بل مقدمة لنتيجة في حالة إذا لم يجد الطرفان نقطة التقاء تفرض عليهما الحرب مباشرة، لأن أحدهما لم يرغب في التفاهم أو حاول أن يفرض وجهة نظره على الطرف المقابل فيحصل الصدام ونذهب للحرب كحل أخير لفرض الإرادة على الآخر وارغامه على التفاهم بالقوة، وهنا يقول كلاوزيفيتش :« الحرب هي عنف مسلط بهدف إخضاع المنافس لإرادتنا. »

خوضنا في أسرار الحرب الروسية الأكرانية يجب أن يعتمد على هذه المقاربة الأكاديمية والعلمية، لا على العواطف والانفعالات وهو ما نراه عند معظم المحللين الغربيين وكذلك المحللين العرب وإن كانوا أقل بكثير. ما هو إيجابي في الحرب الروسية الأكرانية هو اسقاطها للأقنعة عن الجميع، وخاصة عن العالم

الغربي الذي لطالما يتبجح ويقدم نفسه على أنه يدافع عن قيم العدالة والحرية وحقوق الإنسان، غير أنه تبين من خلال هذه الحرب أن كل ذلك ركام من الأكاذيب والأباطيل، فالغرب سقط فيما سقط فيه ألد خصومه وأعدائه الذين يصفهم بمحور الشر. دراستنا لما وراء كواليس الحرب الروسية الأكرانية ليست غايتها الدفاع عن طرف دون الآخر، ولكن هدفنا هو التركيز على جملة من الحقائق السياسية والجغرافية وكذلك الفكرية واظهارها، حقائق يصر الغرب عن صد آذانه عنها ويعتبرها محض افتراءات أم كما يقول بروباغندا. طبعا ليس كل من في الغرب جاهل بالحقائق، فهناك كثيرون يعلمون ما وراء الكواليس ولكن يحاولون عدم الإفصاح عن حيثياته ولو أفصحوا سيعتبرون كموالين لمحور الشر، فنحن الغرب وبصورة خاصة الثقافة الامريكية هي من تمثل محور الخير والكل عليه ان يذعن للقيم وللسياسة الامريكية طوعا او كرها. تلك هي المعادلة الركيكة والسخيفة التي عمل الغرب ولا يزال يعمل على ترسيخها في الأذهان *" نحن قوى الخير الأجدر لكي نقود العالم وسياستنا هي الأمثل والآخرون الذين لا يشاركوننا مصالحنا هم أشرار وبالتالي يجب القضاء عليهم."* ألا تذكرنا هذه المعادلة بالمتطرفين الإسلاميين الذين وصمتهم الآلة الإعلامية الغربية بالإرهاب وبالرجعية وخاصة عدم قبول الآخر، فشرط التقدم والانفتاح هو قبول الآخر المختلف، إلا أننا نرى الغرب اليوم يفعل العكس، عندما يشعر بقوة ستنافسه في المستقبل لديها ثقافة ومقاربة تختلف عن ثقافته ومقاربته سرعان ما يشيطنها ويعمل على إقصاءها، أليست ردة الفعل هذه لا تختلف عما كان يفعله المتطرفون الإسلاميون "*نحن الخير والبقية هم الشر ويجب محاربتهم* ".

لست هنا بصدد الدفاع أو التبرير لطرف دون آخر، ولكن سنحاول أن تكون دراستنا هذه على قدر كبير من الموضوعية، والمعلومات التي سأدلي بها في هذا الكتاب ليست من وحي الخيال أو رؤية اقدمها مبنية على اماني ورغبات وأحلام بل مستمدة من الواقع مرفوقة بمراجع علمية واكاديمية حتى نفهم أسرار هذه الحرب التي ستكون أخطر حرب على الإطلاق خلال هذا القرن، ستكون حرب القرن الواحد والعشرين.

الباب الأول

قراءة جيوسياسية وفلسفية للعلاقات الروسية الغربية منذ انهيار الإتحاد السوفياتي إلى نهاية العقد الأول من القرن الواحد والعشرين

الفصل الأول

فكرة تفوق العرق الأبيض وظهور علم الجيوبوليتك

إن الإنسان مهووس بفكرة التفوق على بقية الكائنات الغير عاقلة، ففي العصر القديم والوسيط كان يعتقد أنه مركز المنظومة الشمسية وكل الكواكب تدور من حوله، فهو مركز الوجود وكل شيء، وقد تطور هذا الهوس ليصل به إلى مرحلة أين يعتقد فيها نفسه أنه أفضل من الكائنات العاقلة والأكثر جدارة وكفاءة منها، ولو عدنا إلى تاريخ الحضارات لوجدنا مثقفيها وأدباءها وفلاسفتها يُنَظِرُون لفكرة التفوق على بقية الشعوب والحضارات، على أن حضارتهم تمثل المركز أو الأصل أو عنفوان التقدم والتطور إلى آخره من التوصيفات. لقد تطورت أساليب الدفاع عن فكرة التفوق، وبلغت إلى مستوى خطير خلال التاريخ الحديث، خطر يكمن إما في اقصاء الآخر أو اخضاعه بشتى الطرق سواء السلمية أو القتالية. وهنا نريد التركيز على أساليب الدفاع عن فكرة التفوق في العالم الغربي، فهي كما سنرى الوقود الأول لإشعال الحروب في أوروبا وفي العالم بأسره. أثناء دراستي لتاريخ الفكر والسياسة في الغرب، شدتني طريقة تفكير الألمان مقارنة ببقية شعوب أوروبا، فجل النظريات الفلسفية والعلمية والسياسية خلال العصر الحديث جذورها تعود للألمان، حقيقة تعجبت من درجة نبوغهم في شتى المجالات العلمية، وتساءلت: لماذا الألمان كان لديهم دائما الأسبقية في التفكير أمام نظرائهم من إنكليز وفرنسيين وايطاليين وهولنديين إلخ ؟. طبعا ذلك لا يعني أن البقية لم يصلوا إلى درجة متقدمة من النبوغ بل كانوا أيضا مبدعين، إلا أن الألمان كانت دائما لهم الأسبقية. كان الألمان يؤمنون إيمانا راسخا بتفوقهم العرقي، حيث كان لديهم هاجس السيطرة على أوروبا تحت سلطان ألمانيا حتى قبل ظهور أدولف هتلر على مسرح الأحداث.

الفلاسفة الألمان لعبوا دورا كبيرا في تطوير فكرة التفوق وتحديدا الألماني ذو البشرة البيضاء، هؤلاء الفلاسفة ينتمون إلى المدرسة المثالية التي تقوم على إعطاء قيمة للفكرة لا للموضوع، وهم فيخت، هاردار، شلينغ، وهيغل. هيغل يعتبر من الفلاسفة الذين كرسوا حياتهم

لإثبات أن الأمة الألمانية هي الأفضل، كانت فلسفته تقوم على فكرة الدولة، مؤكدا أن الألماني يجب أن تكون لديه ثقة عمياء في قدراته الفكرية خاصة، لأنها تسمح له بالتفوق على البقية حيث كتب :

« خلال التطور الحتمي والعقلاني للفكرة، من الطبيعي أن يكون الشعب الذي يمثل ذروة السلم التطوري أن يتملك البقية، ويتملك الحق المطلق. الشعوب الأخرى ليس لديها أي حق، والذين يقعون في مرتبات متأخرة لن يكون لهم حضور في تاريخ العالم. » [1]

لكي نفهم ما كتبه هيغل يمكن أن نضرب مثالا معروفا دائما ما يتم تقديمه لشرح فلسفته، هذا المثال يقوم على مراحل تطور النبتة، تكون أولا بذرة ثم تنمو فتصبح برعما ثم تنمو لتصبح عودا صغيرا ثم تنمو فتظهر أوراقها ثم تنمو وتصل مراحلها الأخيرة فتتفتح وتنتج الثمرة. يشبه هيغل الثقافة الألمانية بالمرحلة الأخيرة، فالألمان يمثلون آخر تطور المراحل الإنسانية، وقد كان حديث هيغل بالأساس عن الفكرة في كتابه "*فينومنولوجيا الروح*." الفكرة تتطور عبر التاريخ، تكون ساذجة خرافية ثم تتطور شيئا فشيئا فتصبح عقلانية تقوم على ادلة علمية مثبتة، إذن فالألمان هم عقل العالم وبالتالي يجب أن يكونوا أسياده حسب المقاربة الهيغلية.

خلال فترة هيغل طيلة القرن التاسع عشر، ظهر العديد من السياسيين والمثقفين يدافعون عن فلسفته، وأقوى نظرية في هذا السياق هي نظرية تعميم الجرمنة، بالانقليزية pangermanisme. بان تعني الكل وجمانيزم تعنى الألماني إذن الكلمة كلها هي الكل ألماني، بمعنى أن كل شيء يجب أن يخضع تحت السيطرة والإرادة الألمانية، وبطبيعة الحال، كان هتلر في مقدمة المدافعين عن هذه النظرية والمتأثرين بها. لقد تفنن الالمان وابدعوا في تطوير هذه النظرية التي تدور أصلا حول فكرة التفوق تفوق الرجل الأبيض الألماني، وهذا العمل المتواصل لتطويرها أدى إلى نشأة علم جديد لم يكن معروفا ألا وهو علم الجيوسياسة أو الجيوبوليتيك (Geopolitique). إن هذا العلم حيوي للغاية، فهو يؤلف بين علم الجغرافيا وعلم السياسة، لا يمكن الفصل بين الموقع الجغرافي للدولة وسياستها تجاه الدول الأخرى،

[1] Essaie sur la formation de l'esprit publique Allemand, jaque Flache.

بتعبير آخر الجغرافيا هي من تحدد العلاقات الدولية والإستراتيجيات المستقبلية، يظهر أن هذا العلم يجمع بين ما هو مادي : المناخ، الموقع، احتياجات البشر من موارد طبيعية والديمغرافيا، وبين ما هو فكري : التوجهات الفلسفية والإستراتيجيات العسكرية والإقتصادية. هناك تعريفات عديدة لهذا العلم أبرزها ؛ علم يهتم بدراسة العلاقات بين العوامل الجغرافية والتوجهات السياسية.[2] أو علم يحاول تفسير نشوء القوة السياسة في المحيط.[3] أو هو تحليل جغرافي للوضعية السياسية والإجتماعية.[4] ومهما تعددت التعريفات فإنها تختلف في الشكل لا في المضمون، فالمضمون يبقى نفسه، علم الجيوبوليتيك هو دراسة وتحليل لعلاقة السلطة بالمكان أو المحيط.[5]

أول ظهور لهذا العلم كان في ألمانيا، وكان أول من وضع لبناته الأولى هو فردريك راتزل Friedrich Ratzel صيدلي وعالم حيوانات zoologie وجغرافي، ولد سنة 1844 وتوفي سنة 1904. راتزل لم يستعمل في مؤلفاته مصطلع جيوبوليتيك ولكن مصطلح الأنتروبوجغرافيا anthropogéographie. أنتروبولوجيا تعني علم يدرس عادات وثقافات الإنسان عبر التاريخ وجغرافيا علم الخرائط والمواقع، وعنوان كتابه هو الأنتروبوجغرافيا صدر سنة 1882. هدف راتزل هو تطوير علم الجغرافيا كعلم يدرس بالأساس الظروف الطبيعية، والجديد في مقاربته هو ادماج العنصر البشري بالعنصر الجغرافي، حيث لاحظ أن العنصر البشري تم اهماله أو التغاضي عنه من طرف العلماء السابقين، وبالتالي عمل على إعادة بناء علم الجغرافيا وفق أسس الطبيعة والحياة. سنفهم أكثر هذا التعريف الجديد للجغرافيا إذا علمنا أن راتزل متأثر إلى حد كبير بنظرية الطور الداروينية، حيث اعتبر أن الدولة مثلها مثل الكائن الحي، فالكائن الحي يمر بفترة ضعف وانكسار نظرا للظروف الطبيعية المحيطة به أو فترة قوة وسيطرة حسب الظروف الخارجية الجديدة، الدولة هي أيضا كذلك، فحدودها الترابية تتقلص وتتسع تبعا لضعفها أو لقوتها، فحدود الدول هي بمثابة الحقيقة العضوية،

[2] Stéphane Rosière, « Géographie politique, géopolitique et géostratégie: distinctions opératoires », L'information géographique, vol. 65, no 1, 2001, p. 33.
[3] Ibid.
[4] Ibid.
[5] Philippe Subra, Géopolitique de l'aménagement du territoire, Paris, A. Colin, dl 2014, cop. 2014, p 350.

وعليه سيكون مسموحا لشعب ما التوسع على حساب الآخرين إذا كانوا غير أكفاء.[6] إن هذه المقاربة تشرع حسب كثير من البحاثيين والأكاديميين الغربيين إلى النهج الإمبريالي الذي يدعو إلى اخضاع الشعوب الأخرى والسيطرة على ثرواتها الطبيعية. فكر راتزل تأثر به كارل هاوسهوفر Karl Haushofer ولد سنة 1869 وتوفي منتحرا سنة 1946 أكبر منظر للجيوبوليتيك في المانيا. هاوسهوفر وظف في كتاباته مصطلحا يسمى" المجال الحيوي" vital space بالألمانية *Lebensraum* علما أن هذا المصطلح أول من استعمله هو راتزل، ولكن هاوسهوفر توسع فيه وأصبح الذريعة التي احتج بها هتلر في كتابه كفاحي من أجل تبرير التوسع على حساب الشعوب الأخرى والسيطرة عليها. [7]

يبدو جليا أن علم الجيوبوليتيك أسسه الألمان خلال القرن التاسع عشر ثم انتشر في كامل دول أوروبا. في بريطانيا أول من خاض في هذا العلم هو هالفورد جون ماكيندر Mackinder Halford John ولد سنة 1861 وتوفي سنة 1947 أفكاره ساهمت كثيرا في تطوير هذا العلم وتطوير فكرة تفوق الرجل الأبيض. طبعا فماكندر قرأ كتاب راتزل ونحت توجهه الفلسفي اعتمادا على فلسفة الالمان، ويقال انه الأب المؤسس لعلم الجيوبوليتيك، ولكن في الحقيقة هم الألمان وليس الإنكليز، فبعد نهاية الحرب العالمية الثانية وانهيار ألمانيا النازية عمل المنتصرون في الحرب على تجريد الالمان من كل انجاز علمي ونسبوه لأنفسهم. لقد رفض ماكندر استعمال مصطلح جيوبوليتيك لأنه يحيل للحزب القومي الاجتماعي النازي، وهذا دليل كاف يثبت تأسيس هذا العلم من طرف الالمان وليس الإنكليز. وضع ماكندر أهم مبادئ الجيوبوليتيك التي ستحدد العلاقات الدولية والاستراتيجية بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم (القرن الواحد والعشرين) مبدأ عاما مفاده، أن العرق الانغلو ساكسوني مكلف بمهمة مقدسة ألا وهي نشر قيم الحضارة الغربية داخل الدول الغير المتحضرة،[8] وكأن لسان حاله يقول أن الأنغلو ساكسون هم فقط المتحضرون أو حتى لو كان للآخرين حضارة فإن حضارتهم لا ترتقي إلى حضارة الغرب الأنغلو ساكسوني. توصل

[6] Friedrich Ratzel, Géographie politique.

[7]

[8] Aymeric Chauprade, Mackinder, Théoricien de suprématie anglo-saxonne, la nouvelle revue d'histoire, 2012 p 25 27.

ماكندر إلى هذه الفكرة – ولا أدري صراحة كيف توصل إليها و ما الذي استند عليه حتى يستنتج ذلك – بعدما كان شاهد عيان على سلسلة حروب البووارس Boers وهو صدام عسكري حدث بين قوات الاحتلال البريطانية و جمهوريتي بووارس في جنوب إفريقيا بين 1899 و1903. أما الحرب الثانية فهي حرب منشوريا وهي منطقة تقع أقصى شمال شرق الصين تعرضت للغزو الياباني منذ سنة 1904.

وضع ماكيندر نظرية متكاملة أثرت بشكل كبير على المختصين في الشأن الجيوسياسي طيلة القرن العشرين، هذه النظرية تسمى " المركز الحيوي داخل المجال " بالانقليزية *Heartland*. يرى ماكيندر أن الكرة الأرضية منقسمة إلى ثلاث جزر كبرى وهي أوراسيا تعني كل أوروبا وآسيا، بما فيه الأرخبيل البريطاني والياباني وامريكا الشمالية والجنوبية[9]. نلاحظ ان ماكيندر أهمل القارة الإفريقية التي كان يُنْظَرُ إليها نظرة دونية في تلك الفترة. يصف ماكيندر أوراسيا على أنها جزيرة العالم the island of the world ومن يسيطر عليها يسيطر على العالم بأسره. واللافت في نظريته أنه أكد كون القوة البحرية لدولة ما ليست مفتاح الهيمنة على العالم، لأن المواصلات البرية تتطور مع تقدم الزمان مما يمنح أهمية كبرى لأوراسيا في المستقبل، وكأن ماكيندر تنبأ بما سيحصل بعد خمسين سنة من وفاته. لقد لخص ماكيندر نظريته الجيوسياسية في ثلاث جمل :

1 - من يسيطر على أوروبا الشرقية يسيطر على المركز الحيوي داخل المجال Heartland.

2 - من يسيطر على المركز الحيوي سيتحكم في جزيرة العالم.

3 - من يتحكم في جزيرة العالم سيسير العالم.

نلاحظ إذن كيف أولى ماكيندر اهتماما كبيرا بأوراسيا، ولكن في واقع الامر هناك منطقة جغرافية محددة في اوراسيا حيوية تجعلها بالفعل مفتاح السيطرة والتحكم في العالم تمتد من نهر فولغا volga الذي ينبع بالقرب من موسكو ويصب في بحر قزوين، ومن جبال

[9] Aymeric Chauprade, Géopolitique : constantes et changements dans l'histoire.

الهيمالايا إلى غاية القطب المتجمد الشمالي، منطقة غنية بالثروات الطبيعية حيث تحتوي على 50 % من ثروات العالم. هذه المنطقة كان مجملها يقع تحت سيطرة الإمبراطورية الروسية خلال القرن التاسع عشر، ماكيندر أشار أن الأوروبيين وخاصة العرق الانغلوساكسوني قللوا من شأن السيطرة الروسية لأنها كانت في نظرهم متأخرة تكنولوجيا وسياسيا وعسكريا واقتصاديا عن أوروبا، ولكن أصبحت المسالة معقدة عندما إكتشف الغرب أن للروس أطماع توسعية من جهة الشرق والجنوب وهو ما أدى إلى اندلاع سلسلة من الصراعات الامبريالية والديبلوماسية بين إنكلترا وروسيا سميت باللعبة الكبرى، مسألة سنتطرق إليها في الفصل الموالي. لقد أشار ماكيندر في نظريته إلى نقطة مهمة جدا ستكون من بين الأسباب الرئيسية لاندلاع الحرب الروسية الاكرانية بعد مائة وثمانية عشر عاما (ماكيندر صاغ نظريته سنة 1904) مفادها أنه لا يمكن لسلطة بمفردها السيطرة على الهيرت لاند، يقصد أن اتساع المنطقة الجغرافية من الصعب أن تتحكم فيها امبراطورية أو دولة بمفردها إلا في حالة وجود عوائق أو حوائل طبيعية تلعب دور الرادع لكل غزو خارجي، فمثلا الثلوج من الناحية الشمالية تعيق التقدم البحري، والسهول والجبال من الناحية الجنوبية تعيق التقدم البري. إضافة إلى ذلك قال ماكيندر جملة مهمة جدا، إن أكرانيا سهولها منخفضة وهي بالتالي تمثل الموقع الأفضل لتحرك القوى الغازية بسهولة والتوغل بسرعة في الداخل الأوراسي. ومن هنا نفهم لماذا السياسيون الروس منذ الإتحاد السوفياتي وبعد انهياره يعتبرون أن أكرانيا تمثل هاجسا لأمنهم القومي.

الشخصية الثانية البارزة في ميدان الجيوبوليتيك هو الأمريكي نيكولا سبايك مان Nicolas spykman الذي يعتبر أب هذا العلم في الولايات المتحدة. تأثر بنظرية ماكيندر إلا أنه عدل فيها حيث قسم قارة أوراسيا إلى منطقتين، الشمالية تسمى المركز الأساسي داخل المجال ***Heartland*** والجنوبية تسمى ريم لا ند ***Rimland***. فلسفة سبايك مان هي كالتالي : السلم الحقيقي والدائم لا يوجد، وذلك بسبب تعدد القيم والثقافات والرؤى الموجودة في العالم ما يجعل من فكرة السلم الحقيقية ضربا من الوهم، وبالتالي لا يمكن للمجتمع الدولي أن يخضع

لقيم مشتركة وموحدة، مما يجعل العالم مهددا أكثر، لأن كل طرف سيحاول فرض رؤيته وقيمه على الطرف المقابل وقد يتم الاعتداء على بعضهما البعض[10].

انطلاقا من عنوان كتابه "جغرافيا السلم " نفهم أن هاجسه الأساسي هو إيجاد حلول لتحقيق سلم دائمة بين الدول في العالم، خاصة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية حاول طرح مقاربة جيوسياسية تخضع لها جميع الدول تقوم على درء شبح المواجهة والحروب. الدولة الجديرة بقيادة العالم والتحكم في نظر سبايك مان هي طبعا الولايات المتحدة التي استفادت من الحربين العالميتين بتحول ميزان القوى لديها، ولكي تتمكن الولايات المتحدة من قيادة العالم يجب عليها التحكم في منطقة الريم لاند الممتدة من أقصى المحيط الهادي مرورا بالبحر المتوسط إلى حدود المحيط الأطلسي.

منطقة الريم لاند تمثل الجزء الجنوبي، لذلك فإن المعنى الحرفي للريم لاند هو الحافة، بالإنقليزية (edge or out line) الخريطة توضح كذلك أن المنطقة الجغرافية التي يركز عليها سبايك مان محيطة بالهيرت لاند التي تضم روسيا ودول آسيا الوسطى. أمن الدولة في فلسفة سبايك مان يتجاوز حدودها الترابية إذا أرادت ضمان تفوقها العسكري والإقتصادي،

[10] Nicholas Spykman, Geography of The Peace p 4-5.

فالتفوق مشروط بالموقع الجغرافي والثروات الطبيعية.[11] يبدو واضحا أن سبايك مان يلمح بطريقة غير مباشرة إلى ضرورة فرض الولايات المتحدة سياستها وقيمها على الدول الواقعة داخل منطقة " الحافة" وهنا نفهم خوف القيادات الأمريكية من الصين وصعودها الاقتصادي والعسكري، فالصين تقع داخل الحافة، المنطقة التي يجب أن تخضع كليا للسياسة الامريكية من أجل السيطرة على منطقة هيرتلاند التي تضم روسيا اليوم، وهو ما يفسر قول كيسنجر السياسي المخضرم أن الولايات المتحدة عليها أن تمنع التقارب أو التحالف بين روسيا والصين، ولو تم ذلك سيكون كارثة استراتيجية.

توضح الخريطة وجود أكرانيا داخل الريم لاند، وبالتالي نفهم لماذا يصر الساسة الامريكيون منذ أوائل الالفية على التقارب مع هذا البلد بجعله مواليا للسياسة الغربية، لأنه سيكون البوابة الرئيسية التي من خلالها يمكن التحرك بحرية داخل أوراسيا حسب قول ماكيندر، والسيطرة على اوراسيا يعني التحكم في مستقبل العالم كما يقول سبايك مان " *من يتحكم في الريم لاند يتحكم في أوراسيا ومن يتحكم في أوراسيا يتحكم في مصير العالم*" .[12] ما يمكن استنتاجه أيضا من هذا القول أن السيطرة على الريم لاند يعني محاصرة روسيا وذلك ما قامت به الولايات المتحدة طيلة الحرب الباردة وبعد تفكك الإتحاد السوفياتي منذ تسعينيات القرن الماضي.

[11] Ibid, p 4.
[12] P 43.

الفصل الثاني

حيثيات اللعبة الكبرى منذ انهيار الاتحاد السوفياتي إلى مطلع الألفية الثانية

حتى نفهم أسرار الحرب الروسية الاكرانية علينا ان ندرس فيما وراء الكواليس، فالحرب لها أسباب بعيدة أدت إلى تراكمات عبر سنوات طويلة لتنفجر في شباط من سنة 2022، وليس كما ينظر معظم الغربيين سواء المثقفين وغير المثقفين لهذه الحرب، على أنها اندلعت بين ليلة وضحاها بلا ممهدات أو مقدمات، وأن الرئيس الروسي فلاديمير بوتن ليس سوى رجل مغامر امبريالي يسعى للسيطرة والتوسع على حساب الآخرين، وسوف نكتشف في ثنايا دراستنا للحرب وما قبلها، تناقضات الغرب، غيهم وأساليب خداعهم، ببساطة لأنهم يعتقدون ولا يزالون أنهم الأجدر بقيادة العالم و هم فقط من لهم الحق لكي يحددوا مصير الآخرين.

اللعبة الكبرى (The great game) مصطلح يحيل إلى سلسلة من الاحداث الجيوسياسية تتمحور حول الصراع بين القوى العالمية الكبرى خلال حقب تاريخية متباعدة ابتداء من القرن التاسع عشر. ما سنركز عليه هو سياق اللعبة الكبرى بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وتحول العالم إلى قطبية أحادية متمثلة في الولايات المتحدة الأمريكية. أعلن رسميا عن تفكك وانهيار الاتحاد السوفياتي يوم 25 كانون الأول على لسان آخر رئيس سوفياتي ميخائيل غورباتشوف. كان هاجس غورباتشوف هو الحصول على ضمانات من الكتلة الغربية لكيلا يتوسع حلف الناتو شرقا، هذا الحلف تأسس سنة 1949 في خضم الحرب الباردة لردع الكتلة الشرقية بقيادة السوفيات. غورباتشوف لم يدعو إلى حل الناتو مثل حلف وارسو بل كان يتطلع إلى بقاءه سلميا لا عدائيا يعمل على تعزيز التعاون والشراكة بين الدول الأوروبية بما فيها روسيا. الاتحاد الروسي الذي خلف الكتلة السوفياتية كان يطمح لكي يكون جزء من نظام أمنى متكامل، فالمجتمع الروسي عانى كثيرا من مخلفات الشيوعية طيلة عقود ما دفعه للتطلع إلى إقامة علاقات ديبلوماسية قوية ونظام صداقة مع الكتلة الغربية، ولقد اعلن غورباتشوف

سنة 1989 إقامة " البيت الأوروبي المشترك " *the European common house* رؤية عززها موقف مانفريد فورنر Manfred worner سياسي وعضو الاتحاد المسيحي الديمقراطي الألماني في 17 أيار 1990 بتصريحه :

« المهمة الأساسية لهذا العقد تتمثل في انشاء منظومة أمنية أوروبية الإتحاد السوفياتي يكون جزء منها وبلدان حلف فرصوفيا. سيكون للاتحاد السوفياتي دور مهم من أجل بناء هكذا منظومة » .[13]

انشاء مجلس تعاون الشمال الأطلسي (The creation of the North Atlantic Cooperation Council (NACC) نهاية 1991 تحمس له الرأي العام في روسيا، لأنها قد تكون فرصة ثمينة لتحقيق فكرة التعاون وتعزيز الأمن تنتهي بقبول عضوية روسيا في حلف الناتو. سنة 1993 دارت نقاشات بين بوريس يلتسن أول رئيس للاتحاد الروسي والسياسي الأمريكي فارن كريستوفر Warren christopher أخبره أن الحلف سيدرس الاقتراح – اقتراح انضمام روسيا للناتو – وسنقرر ذلك على ضوء التشاور بين الدول الأعضاء.[14] وثائق تم تسريبها حديثا تكشف أن بريطانيا رفضت انضمام روسيا للحلف واعتبرته مزحة لأن السبب من انشاء الحلف هو وضع الدول الأوروبية تحت المظلة النووية الأمريكية، إضافة إلى ذلك فإن الولايات المتحدة كانت ترى أن فكرة قبول عضوية دولة نووية فكرة غير مجدية، ما يفسر خروج فرنسا من الحلف بقيادة شارل ديغول سنة 1966 بعد أن أصبحت دولة نووية، ثم عادت إليه بعد خمسين سنة مع الرئيس نيكولا ساركوزي. [15] نلاحظ أن الغرب وخاصة التيار الانغلوأمريكي لم يغير رؤيته للحلف بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، فالهدف الأساسي للحلف هو توفير آلة الردع النووي للدول الأوروبية ومواجهة الكتلة السوفياتية، غير أنه مع انهيار هذه الأخيرة يجب أن يزول هذا الخطر ويقع بالتالي قبول روسيا كشريك اقتصادي وعسكري، وهو ما سعى إليه يلتسن طيلة التسعينات، فالحرب الباردة انتهت، وموسكو أصبحت ترى واشنطن كمنافس في إطار الودية لا العدائية. المشكل اذن يكمن في عدم تغيير التيار الانغلوامريكي رؤيته تجاه الحلف، لأنه لو تحولت هذه الرؤية إلى رؤية تقوم على التعاون بين جميع الدول بما في ذلك روسيا من أجل تطوير الشراكة وتعزيز

[13] Jacques Baud, opération Z, p 17.
[14] P 18.
[15] P 19.

الأمن، لتوفرت بذلك أرضية تقارب بين الغرب والشرق. الغرب كان عليه تبديل سياسته المبنية على الصدام والمواجهة إلى التقارب والصداقة وهو ما لم يحدث، لأن التيار الانغلوالأمريكي لم يتخلص من فكرة تفوق الرجل الأبيض الغربي.

رفض قبول عضوية روسيا في الحلف قوبل بخيبة أمل روسية، فالاتحاد الروسي كان يتبع سياسة انفتاح تقوم على التشاركية مع الغرب عقب تفكك الاتحاد السوفياتي، وهذا هام جدا لكي نعرف أن روسيا لم تناصب العداء لحلف الناتو خاصة في فترة التسعينات بل سلكت جميع الطرق الديبلوماسية لقبول عضويتها ولكن جوبهت بالرفض. واضح أن روسيا بعد اعلان انهيار الاتحاد السوفياتي رأت أنه لم يعد هناك حاجة من تخوف الكتلة الغربية من بعبع الشيوعية، وقد أكدنا أن روسيا نفسها عانت منها، يجب طي صفحة الحرب الباردة وبدء صفحة جديدة وهو ما سعى إليه غورباتشوف في السنوات الأخيرة من حكمه.

طموح الرئيس غورباتشوف للانضمام إلى الحلف، كان من وراءه سعى للحصول عن ضمان أمن روسيا جغرافيا واستراتيجيا، في حالة انصهارها في الحلف لن يكون هناك داعي من التوجس من مخاطر الاحتواء او التطويق، غورباتشوف كان يريد ضمانات امنية، مثلها مثل التي طالب بها الرئيس بوتن قبيل اندلاع الحرب الروسية الاكرانية. أدرك غورباتشوف أن بلاده لن تكون جزء من الحلف، فطالب الولايات المتحدة والناتو بضمانات أمنية تضمن عدم توسع الحلف شرقا تنتهي بتطويق روسيا في المستقبل. غالبا ما كان ينظر إلى هذه الحادثة التاريخية من طرف الاعلام والسياسيين الغربيين على أنها محض افتراءات وبروبغندا روسية، فغورباتشوف لم يطالب أبدا بكذا ضمانات حسب ادعاءاتهم. في كانون الأول سنة 2017، وثائق سرية للناتو سربت وقد أثبتت صحة تلك الضمانات التي لم تكن مكتوبة ولكن شفوية.[16]

سنة 1997، قرر الناتو انشاء مجلس تعاون بين روسيا والناتو " مجلس روسيا الناتو" (The Nato Russia Council NRC) وقد تأسس فعليا سنة 2002 لكي يوهم روسيا بفكرة أن الناتو يقبل بشراكتها عبر الحوار حتى يضمن لها أنه لن يمثل تهديدا استراتيجيا

[16] P 20.

لها،[17] وهي خدعة صدقتها روسيا في تلك الفترة بسبب حسن نيتها، ولنتذكر ما قاله بوتن قبل الحرب الاكرانية أن روسيا تعرضت للخداع طيلة السنوات الماضية. تكشف الوثائق تصريحا لافتا للنظر أتى على لسان الرئيس بيل كلينتون في تلك الفترة وهو كالتالي:

« ما ستحصل عليه روسيا من هذا الاتفاق هو الجلوس على نفس الطاولة التي تجمع الدول الأعضاء في الحلف، يشاركوننا المواقف في بعض المسائل، ولكن ليس لهم حق الفيتو، الاعتراض على كل ما يصدر من الحلف، ولو اعترضوا ما عليهم سوى مغادرة قاعة الجلوس. كما عليهم أن يعلموا أننا لا نشارك القضايا العسكرية مع حلفائها السابقين (يقصد دول شرق أوروبا التي كانت ضمن حلف وارسو). سيصبحون حلفاء لنا، شريطة عدم تغيير رأينا في اليوم الموالي.» [18]

واضح أن تصريح كلينتون مفاده " أننا سنعطيكم ضمانات شفوية قد نتصل منها في المستقبل"، وهو كما قلنا يدخل ضمن لعبة الخداع الاستراتيجية. في سنة 2021، نفى أمين عام الناتو جون ستولتن بارغ Jean Stoltenberg أن الحلف أعطى لروسيا ضمانات أمنية لكيلا يتوسع شرقا، صحيح أن الناتو لم يعطي ضمانات لروسيا ولكن لم يعطيها ضمانات مكتوبة، وهذا لا يعنى أنه لم يعطي ضمانات شفوية، ولا يمكن أن نلقي باللائمة على غورباتشوف لأنه حتى لو طالب بضمانات مكتوبة فلن يحصل عليها كما طالب بها بوتن قبيل اندلاع الحرب بسنة فضرب بطلبه عرض الحائط، وكان ذلك من بين أهم الأسباب التي أدت إلى انفجار الحرب الروسية الأكرانية كما سيأتي.

لم يكن الغرب بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وتلاشي الشيوعية مستعدا لتغيير مقاربته الجيوسياسية والاقتصادية، من التصادم والعداء إلى التعاون والشراكة وذلك لأربعة أسباب :

1- كان الغرب يرى أن الاتحاد السوفياتي خسر الحرب الباردة وبالتالي ليس له الحق بأن تكون له الكلمة، ونسي أو تناسى أن هذا الاتحاد لعب دورا استراتيجيا كبيرا خلال الحرب العالمية الثانية،[19] أبرزها الحاق الهزيمة بألمانيا النازية وتقديم ضحايا بشرية تفوق ما قدمته الدول المنتصرة مجتمعة.

[17] P 19.
[18] Ibid.
[19] P 21.

2-اعتقاد الغرب وخاصة التيار الانغلوأمريكي أنه يمثل الانسان الأخير على راي الكاتب فرنسيس فوكوياما، أي ان الانسان الغربي بثقافته وسياسته وأسلوب عيشه، هو أخر مراحل تطور الإنسانية والأجدر بذلك لقيادة العالم والسيطرة عليه، ثم ان نموذجه الاقتصادي والفكري يمثل نهاية التاريخ، وهو ما ينسجم مع الفلسفة الهيغلية، فقط الاختلاف ان هيغل ألماني وفوكوياما امريكي من اصل ياباني.

3- بعد انهيار الاتحاد السوفياتي أصبحت الولايات المتحدة شرطي العالم، حيث لا توجد قوة تنافسها على الصعيد العسكري والاقتصادي فالساحة الدولية كانت في أوائل التسعينات خالية أمامها لتفرض ارادتها على الدول الحليفة وغير الحليفة، لقد اعتقد الساسة الامريكيون أن العالم سيبقى أحادي القطبية إلى الأبد ولن يكون هناك منافس في المستقبل، واضح أنهم صدقوا فكرة فوكوياما التي لا أساس لها من الصحة، بل هي ضرب من الأوهام.

4- الكتلة الغربية وخاصة الولايات المتحدة كانوا لا يأخذون بعين الاعتبار بالمصالح الأمنية للدول الأخرى، وأقصد الدول الأخرى الغير حليفة للغرب ولا تشاركها نفس المصالح. كان الغرب دائما يسعى إلى تحقيق أمنه الاستراتيجي والاقتصادي على حساب أمن الدول الأخرى. وهو ما سيكون من بين أهم أسباب الحرب الروسية الأكرانية.

لقد حصل غورباتشوف على هذه الضمانات الأمنية الشفوية قبل إعلانه بسنة من زوال الاتحاد السوفياتي أي سنة 1990، وذلك على لسان امين الخزانة الأمريكية جايمس باكر James Backer الذي اكد لغورباتشوف أن الناتو لا نية له بالتوسع شرقا، وقد تعرض للخداع لإقناعه بسحب قواته من المانيا الشرقية ويتم توحيدها بألمانيا الغربية. ليس باكر فحسب من اعطى هذه الضمانات كذلك جورج بوش الاب، الوزيرة البريطانية ماغريت تاتشر، والرئيس الفرنسي فرنسوا ميتارون.

في 17 أيار 1990 صرح مانفريد فورنر Manfred worner ما يلي :

« عدم استعدادنا لنشر قوات لحلف الناتو خارج حدود ألمانيا من جهة الشرق، وحده يشكل ضمانا أمنيا قويا الاتحاد السوفياتي[20] .»

[20] P 22.

وثائق أخرى ترفع الستار حول حقيقة الضمانات الأمنية التي طالب بها الاتحاد السوفياتي خلال أيامه الأخيرة كشفت عنها المجلة المانية الشهيرة دير شبيغل der spiegel سنة 2021 جاءت على لسان السياسي الألماني جوشوا شيفرنسون Joschua Shifrinson يوم 6 آذار 1991، أي قبل تفكك الاتحاد السوفياتي بتسعة أشهر :

«لقد أكدنا خلال مفاوضات 2+4 أننا لن نوسع حدود الناتو إلى ما وراء نهر الآلب، لا يمكن على ضوء ذلك قبول عضوية بولندا ودول أخرى في الحلف.[21] »

إن الإجابة عن سؤال لماذا الكتلة الغربية لم تحترم هذه الوعود ؟ ببساطة، كانت لها نية مبيتة تهدف لإسقاط ليس فقط الإتحاد السوفياتي ولكن الإتحاد الروسي أيضا، وهو ما افصح عنه ريشارد شني Richard Chenney سنة 1991 نقلا عن روبارت غاتز Robert Gates مدير الاستخبارات الأمريكية CIA في مذكراته :

« عندما تفكك الاتحاد السوفياتي في أواخر 1991، ريشارد شني أراد تفكك ليس الإتحاد السوفياتي فحسب إنما الاتحاد الروسي.» [22]

يظهر إذن أن تصريحات بوتن كون الغرب يسعى إلى تفكيك الاتحاد الروسي جد واقعية وليست محض بروبغندا[23] إعلامية أو سياسية كما يُسَوِق الغرب، إنما تصريحات قائمة على أدلة تاريخية. إن فترة التسعينات كانت كارثية بأتم معنى الكلمة بالنسبة لروسيا والمجتمع الروسي، تعرضت خلالها للإذلال. البلد كان يعيش حالة تدهور اقتصادي كبيرة، انتشار للفقر والتضخم، والأخطر من ذلك، تركز ثروة البلاد في يد مجموعة من الأوليغارك، وهم رجال أعمال روس يمتلكون شركات استثمار ضخمة، طبعا فهؤلاء لم تكن أولويتهم خدمة البلاد بقدر ما كانوا يسعون إلى نهب خيراته وخدمة مصالحهم الخاصة. ضعف روسيا مثل فرصة سانحة للناتو لكي يتوسع شرقا وهو أكده روبارت غاتز في جويلية من سنة 2000 :

« في فترة تعرضت فيها روسيا للإذلال والمرور بصعوبات اقتصادية جمة، استغل الناتو هذا الضعف وسرع من توسيع حدوده شرقا، حينها غورباتشوف وآخرون (إشارة للرئيس يلتسين وسياسيون

[21] Ibid.
[22] P 23.
[23] Propagande. هي محاولة المتكلم التأثير على الراي العام من أجل قبول أفكار وآراء مغلوطة.

روس) اعتقدوا أن ذلك لن يحصل، التوسع المتسارع للناتو في التسعينات كان إيذانا ببداية تدهور العلاقة بين روسيا والولايات المتحدة الامريكية».[24]

سياسة الولايات المتحدة تجاه روسيا أثناء التسعينات بدأت تتكشف يوما بعد يوما كونها سياسة احتوائية عدائية لم تفكر ولو للحظة في التعامل مع روسيا كحليف استراتيجي. وهنا يثور سؤال : لماذا الساسة الامريكيون لم تكن لهم بادرة حسن نية مع روسيا رغم انها سعت لإقامة علاقات ديبلوماسية بناءة وودية ؟

الإجابة نجدها في كتاب زبغنيو بريجينسكيZbigniew Brzezinski (1928-2017) أمريكي من أصل بولندي مختص في العلوم السياسية والجيوسياسية، كان مستشارا للرئيس الأمريكي جيمي كارتر Jimmy Carter خلال السبعينات وعمل تحت مضلة الرئيس رييغن. ألف بريجينسكي سنة 1997 كتاب بعنوان "رقعة الشطرنج الكبيرة" The big chessboard. إن محتوى الكتاب يمثل مرآة تعكس سياسة الولايات المتحدة بحذافيرها منذ التسعينات إلى اليوم. يعتقد بريجينسكي أن النموذج الأمريكي هو الأفضل في العالم ولا نظير له، متبنيا في ذلك أفكار صامويل هانتغتون Samuel Huntington، مفادها أن الولايات المتحدة هي البلد الوحيد الضامن للأمن والازدهار في العالم والرادع للفوضى والعنف. تأثر بريجينسكي كذلك بأفكار ما كيندر وسبايك مان حول المكانة الاسترتيجة لأوراسيا، وقد دعم هذا النهج الجيوسياسي موضحا في كتابه ماذا يجب على الولايا ت المتحدة فعله حتى تتمكن من السيطرة على العالم وضمان عدم بروز قوة تهدد تفوقها في المستقبل. وصف علم الجيوبوليتيك كقطعة شطرنج كبرى، حلبة صراع بين الدول عبر تحريك كل طرف لبيدقه. [25] على خطى ما كيندر وسبايك مان، أولى بريجينسكي اهتماما كبيرا بأوراسيا فهي في نظره تعتبر حلبة الصراع من أجل الهيمنة العالمية.[26] أوروسيا هي المنطقة التي قد تبرز منها قوة منافسة للولايات المتحدة في المستقبل، [27] أوروبا في نظره لا تشكل تهديدا استراتيجيا لأنها الحليف الطبيعي للولايات المتحدة وتشاركها القيم ذاتها.[28] بريطانيا لن تنافس

[24] P 24.
[25] Le grand échiquier, Zbigniew Brzezinski, Bayard édition, p 60-61.
[26] Ibid.
[27] P 67.
[28] P 87.

الولايات المتحدة لأن سياستها منسجمة مع الاستراتيجية الامريكية،[29] فرنسا وألمانيا لهما ارث سياسي وعسكري راسخ قد يمكنهما من قيادة أوروبا والتأثير على العلاقات الدولية سعيا لاسترداد مكانتهما التاريخية. بعد الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة، بحثت فرنسا عن إمكانية توحيد الدول الأوروبية تحت مظلتها بهدف الحد من الهيمنة الامريكية داخل القارة، إلا أنها تبقى دولة متوسطة القوة واقتصادها متواضع [30] يمكن لفرنسا أن تتحول من قوة متوسطة إلى قوة كبرى منافسة للولايات المتحدة إذا تحالفت مع دولة أخرى قوية تمتلك موارد بشرية وطبيعية هائلة مثل روسيا، وهو ما جاء على لسان وزير الخارجية الفرنسي هارفي شرات Hervé de Charrette في الشهر الثامن من سمة 1996 :

« إذا أرادت فرنسا ان تلعب دورا عالميا، يجب الاستفادة من روسيا أكثر قوة » [31].

نظيره الروسي تفاعل مباشرة مع هذا الصريح قائلا :

« من كل قياديي العالم فرنسا البلد الوحيد الطامح إلى إقامة علاقات بناءة مع روسيا .[32]»

يجب على الولايات المتحدة ان تمنع التقارب بين روسيا وفرنسا لكيلا يشكلان كتلة قد تهدد الهيمنة الأمريكية على أوروبا وعلى كل أوراسيا. المانيا لا يسعها التقارب مع فرنسا وتكوين تحالف يقود أوروبا، ألمانيا تضررت كثيرا من الشيوعية وخرجت منهكة من الحرب الباردة، فتحت المظلة الأمريكية ولا غير سواها يمكن لها تبوأ مركز ريادي يقود أوروبا من دون الالتفات إلى جيرانها. [33] كما أنه يجب العمل على عدم التقارب بين فرنسا وروسيا، أيضا يجب منع التقارب بين المانيا وروسيا من جهة ثانية. لا ينفي بريجينسكي أن أوروبا يمكن أن تصيح منافسا اقتصاديا وتكنولوجيا محترما على الصعيد العالمي، ولكن دوله ليست على قلب رجل واحد، ذات تعددية ثقافية واثنية، إمكانية تجاوز الدول الأوروبية لهذه الاختلافات الحادة فيما بينها غير واقعية.[34] في جميع الأحوال، فرنسا لا تمتلك ما يكفي من القوة لتصبح عقبة جيوسياسية لأمريكا، ينبغي العمل على تقوية حلف الناتو لأنه البيدق

[29]
[30] P 95.
[31] P 98.
[32] Ibid.
[33] P 100.
[34] P 107.

الرئيسي في يد أمريكا لممارسة نفوذها على أوروبا، توسع الناتو ضروري للحيلولة وتحقيق الأهداف الجيوسياسية الروسية. لقد أشار بريجينسكي إلى الهواجس الروسية في حالة تمدد الناتو شرقا، لافتا الانتباه إلى إمكانية انقلاب سياسة روسيا تجاه أوروبا لتصبح أكثر تشددا، لتجنب هذا الصدام ينبغي طمأنة روسيا على أن أبواب أوروبا تبقى مفتوحة، أي إمكانية انضمام روسيا للاتحاد الأوروبي واردة على المدى البعيد. لم يرفض بريجينسكي في كتابه مساعدة الولايات المتحدة لروسيا لتنهض اقتصاديا ولتستقر سياسيا بهدف منع ظهور حكومة ديكتاتورية عنيفة تضع يدها على الترسانة النووية الروسية، إلا أن هذه المساعدة ليست مجانية انما لمنع تحول روسيا إلى امبراطورية في قلب اوراسيا. [35]

أولى بريجينسكي اهتماما كبيرا بأكرانيا وعلاقتها الجيوسياسية بروسيا، مشيرا للتواشج الثقافي والتاريخي الضارب في القدم لهذين البلدين، فروسيا بلا أكرانيا لا يمكن لها أن تصبح امبراطورية. واقع الامر، فإن استقلال أكرانيا عن الاتحاد السوفياتي سنة 1991 أثار معضلة جيوستراتيجية كبيرة لروسيا، ألا وهي حرمانها من موقعها الجغرافي المطل على البحر الأسود، ميناء أوديسا Odyssa كان نقطة عبور لجميع المبادلات التجارية والاتصال بالبحر المتوسط.[36] قبل سنة 1991 كانت روسيا تمارس نفوذها البحري في البحر المتوسط بالاعتماد على موانئها المنتشرة على سواحل البحر الأسود، هذه الخسارة الجيوسياسية أثارت مخاوف روسية من إمكانية فتح أوكرانيا القواعد البحرية في جزيرة القرم لحلف الناتو، كما كانت متخوفة من الدولة التركية الموجودة على الضفة الجنوبية من البحر الأسود.[37] من ناحية ثانية، فإن تفكك الاتحاد السوفياتي تسبب في ظهور صدمة كبيرة داخل المجتمع الروسي، الأقليات الناطقة باللغة الروسية التي بقيت تعيش في الدول المستقلة عن الاتحاد السوفياتي، روسيا بقيت ملتزمة تجاه هذه الأقليات، فاللغة الروسية خلال التسعينات ومطلع الالفية هي العنصر الثقافي والتاريخي المشترك بين روسيا والدول المستقلة. إن التنوع الاثني والديني من أقليات سلافية وأرثوذكسية، وأتراك مسلمون، اثنى عشر دولة لها لغتها الرسمية الخاصة،

[35] P 121.
[36] P 126.
[37] P 128-129.

جعل من اللغة الروسية أكثر حضورا داخل هذه الدول في فترة الاتحاد السوفياتي،[38] فالناطقون بالروسية يمثلون الرابط الثقافي الوحيد المتبقي بين روسيا والدول الجديدة مثل أكرانيا، بلاروسيا، أذربيجان، أرمينيان، كازخستان، تركمنستان. عندما تفكك الاتحاد السوفياتي وخسر مساحات جغرافية شاسعة وبصورة أخص الانفصال عن اكرانيا، بدأت تساؤلات عديدة تطرح في الداخل الروسي حول هوية واثنية الروس، وضعية كارثية، قرابة خمسة وعشرين مليون روسي متواجدون خارج حدود البلاد، لأول مرة في تاريخ روسيا نجد عددا هائلا من الروس يعيشون في دول أجنبية.[39] الجغرافي فلاديمير كولوسوف Vladimir Kolossov رأى في اللغة الروسية الشرط الأساسي لبناء هوية سياسية واثنية راسخة.[40] قبل وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي كان هناك جدل فلسفي وسياسي بين الاكاديميين والقوميين الروس الذين كانوا يعتقدون أن روسيا لها مهمة مقدسة تتمثل في توحيد العرق السلافي، وبالتالي يجب توسيع حدود البلاد للم شمل السلاف، موقف أحد القوميين الروس ألكسندر بروكهانوف Alexandre Prokhanov سنة 1990 :

« إنها لكارثة مروعة، واقع لا يمكن أن يتقبله الشعب الروسي، قد يحصل قريبا. لو انهارت الدولة، وإذا سلب من الشعب تاريخه وتعرض للخيانة، يجد نفسه متروكا، وإذا حملوا إخواننا الذين يشاركوننا ماضينا خيراتهم في قوارب وابتعدوا عن السفينة وهم في خطر محدق، لن يتبقى لنا سوى أن نعلن من القادر على انقاذهم. دورنا يرتكز على إعادة بناء الدولة من الناحية الاقتصادية والسياسية والروحية الضامنة للفكر الروسي هي فحسب قادرة على أن تعكس وجهة المملكة الالفية، سبعون سنة من التاريخ السوفياتي اندثر في لمح البصر.» [41]

جمل تعبر عن القلق العميق تجاه الجالية الروسية وهو ما ضاعف من مشاعر القومية، كالقومية السلافية، هناك من تحدث عن تعميم السلافية panslavisme وهناك من تحدث عن الاوراسية Eurasisme، الشعب الروسي لا ينتمي لا للغرب ولا للشرق إنما للمنطقة الاوراسية، وضعية تذكرنا بالقومية الألمانية وتفوق الرجل الأبيض الألماني واتباع النهج الامبريالي التوسعي. لقد عرفت روسيا شان كل شعوب وحضارت العالم التيارات القومية

[38] Géopolitique de la Russie, David Teurtrie, p 13.
[39] P 26.
[40] P 14.
[41] Alexandre Prokhanov, La tragédie du centralisme.

والشعور بالتفوق العرقي، وهي أفكار موجودة إلى الآن ولم تختفي. التيار الأوراسي القومي سيفرز فيما بعد الاوراسيون الجدد neo-eurasisme أصحاب مقاربة فلسفية ميتافيزيقية ذات أبعاد امبريالية توسعية هدفها إعادة أمجاد الإمبراطورية الروسية.[42] الرئيس يلتسين كان معارضا لهذا التوجه القومي الامبريالي، داعما لاستراتيجية براغماتية قوامها أن روسيا يجب أن تصبح قوة داخل حدود ما بعد تفكك الاتحاد السوفياتي، وتجنب البحث عن توسيع حدودها الإدارية.

من اجل الخروج من ازمة الهوية التي عاشها الشعب الروسي عقب تفكك الاتحاد السوفياتي، اتبعت روسيا خلال التسعينات سياسة ما يسمى برابطة الدول المستقلة "Commonwealth of Independent States" سياسة ترمي إلى إقامة علاقات اقتصادية وجيوستراتيجية نشطة مع الدول التي استقلت عن الكتلة السوفياتية، وهي قريبة جدا من سياسة الاتحاد الأوروبي المتمثلة في بناء روابط متينة بين الدول تفضي الى تشكيل ضرب من الاتحاد أو التكتل. تتميز سياسة "رابطة الدول المستقلة" بخاصية استثنائية، تعكس العلاقات الثنائية بين قوة من الصنف الأول روسيا، ودول صغيرة، بيلاروسيا، اكرانيا، اوزباكستان، كازخستان، تركمنستان. [43] هذه السياسة ستؤدي إلى ظهور مصطلح جيوسياسي حيوي وهو الأجنبي القريب close "the strange ".

ما انفكت روسيا طيلة فترة التسعينات تعمل على تعزيز التقارب بينها وبين دول الاتحاد السوفياتي السابق لسببين رئيسيين :

أولا ضمان مصالحها الجيوسياسية.

ثانيا التوجس من بروز تيارت قومية يمينية متطرفة قد تغذي مشاعر المعادات ضد كل ما هو روسي.

يبدو واضحا أن الاتحاد الروسي بالاعتماد على سياسة رابطة الدول المستقلة سعى إلى ترسيخ علاقات اقتصادية وجيواستراتيجية متينة قد تمكنه في المستقبل من تجاوز أزماته

[42] Géopolitique de la Russie, p 30.
[43] P 35-36.

الداخلية الحادة التي خلفتها الشيوعية على مدى سبعين عاما. ما تريده الولايات المتحدة هو عدم تشكل قوة كبيرة في منطقة اوراسيا، تمثل تحديا لسياستها الخارجية، وهو ما أكده فكتور كرامانيوك Victor Kremeniouk سنة 1996 :

« إعادة تنظيم العلاقات بين الدول داخل البيت الأوراسي، يمنع بروز قوة إقليمية كبيرة، ويضمن بروز قوى متوسطة، مستقرة وثابتة، وخاصة يجب أن تكون أدنى من الولايات المتحدة الأمريكية.» [44]

لكي تضمن الولايات المتحدة ذلك، ما عليها سوى لعب الورقة الاكرانية، بداية من سنة 1994 بدأت واشنطن تقيم علاقات ديبلوماسية مع الجانب الاكراني، موسكو من جانبها لا حظت إصرار واشنطن على استقلال هذ البلد عن كل ما يربطها بالمنطقة والثقافة الاوراسية، رأت فيه موسكو تدخلا مباشرا في شؤونها.[45] وهنا ربما يتساءل البعض بالقول: إذا كانت اكرانيا بلد نال استقلاله منذ 1991 وذو سيادة، فلا يجب على روسيا التدخل في شؤون دولة مستقلة. جل المحللين الغربيين اليوم يقولون أن روسيا بإعلانها الحرب ضد أوكرانيا تريد ضمان منطقة نفوذ area of influence، في الحقيقة، روسيا لا تريد منطقة نفوذ بل تريد منطقة خالية من النفوذ، وذلك ما سنوضحه في الصفحات القادمة.

الجدير بالذكر، أنه منذ التسعينات شريحة واسعة من المجتمع الروسي أبدت رفضها لاستقلال اكرانيا لأسباب سياسية وثقافية. صحيفة *Obchtchaya Gazeta* الروسية، أعلنت يوم 10 كانون الأول 1996 ما يلي :

« في المستقبل، موسكو ستكون أمام مأزق عويص، جراء تطور احداث لا يمكن التنبؤ بها في الداخل الاكراني، مظاهرات تعبر عن رفضها لهذا الواقع، مرفوقة بدعوات لروسيا بالتدخل، عدد كبير من الروس مؤيدون لهذه الفكرة.»

وكأن الصحيفة تنبأت الحرب الروسية الاكرانية قبل ستة عشر عاما، لان اكرانيا تشكل خطرا جيوسياسيا قاتلا بالنسبة لروسيا، كما أن مستشار الرئيس يلتسين Dimitri Ryurikov أعلنها صراحة في 20 نوفمبر من نفس السنة، أن "*اكرانيا ظاهرة وقتية*". ما

[44] Le grand échiquier, p 140.
[45] Ibid.

يمكن استخلاصه، انه منذ التسعينات كانت موسكو تعتبر اكرانيا جزء لا يتجزأ من أمنها القومي، فهي مربط فرس الجيوسياسة الروسية.

العديد من المراقبين والمتابعين للحرب الروسية الاكرانية، تعجبوا من مساندة الدول الغربية اللامحدودة لأكرانيا واللامعقولة أحيانا في حربها ضد روسيا، هذه المساندة لم تولد مع الحرب، بل تعود إلى تسعينات القرن الماضي، حيث رأت واشنطن منذ 1996 أن استقلال اكرانيا يضمن استقرار أوروبا، اكرانيا يجب أن تكون عضوا في الاتحاد الأوروبي، مسألة استقلال هذا البلد غير قابلة للنقاش، إلى درجة أن بعض المسؤولين الأمريكيين أكدوا أن أوكرانيا حليف استراتيجي. [46] علينا التنويه ها هنا أن هذا التضامن الأمريكي مع كييف سببه ليس الدفاع عن الديمقراطية والليبرالية وحقوق الانسان كما يسوق الغرب اليوم، بل لأن هذا البلد بيدق أساسي لضرب المصالح الروسية في المستقبل، ووأد كل السبل التي قد تمكنها من أن تصبح قوة إقليمية او حتى عالمية. لقد اشرنا آنفا أن السياسة الأمريكية عقب تفكك الاتحاد السوفياتي وطيلة التسعينات لم تكن أبدا انفتاحية تقوم على الشراكة والمعاملة الندية، وهو ما أكده حقيقة بريجينسكي:

« فكرة شراكة استراتيجية مسؤولة ربما تكون مغرية، ولكنها مخادعة أيضا. لم تفكر الولايات المتحدة ولو للحظة في اقتسام تفوقها العالمي.[47]»

خلال التسعينات اعتقد الساسة الأمريكيون أن إمبراطورتيهم هي حلقة التاريخ الأخيرة، ونموذجهم الاقتصادي والمالي والاجتماعي والثقافي هو الأفضل ولا نظيرله، وأستغرب صراحة كيف يتهم بريجينسكي روسيا بأن لها ميولات امبريالية ولا ينبغي إقامة شراكة معها، كل ما في المسألة أن الدول لديها مصالحها الجيوسياسية الخاصة يجب أن تؤخذ في الحسبان. أليس النظام المالي الذي فرضته الولايات المتحدة على العالم منذ السبعينات ثم أصبح يوظف من أجل فرض عقوبات على الدول التي لا تتفق مع سياستها يمثل جوهر الإمبريالية. انها امبريالية ستكشر عن أنيابها مع مطلع الألفية، بصعود حزب المحافظين وتبني فلسفة فولفوفيتز.

[46] P 151.
[47] P 136.

الفصل الثالث

فلسفة بول فولفوفيتز وصعود حزب المحافظين

بول فولفوفيتز Paul Wolfowitz ولد في 23 أيلول 1943، ديبلوماسي ومختص في العلوم السياسة، شغل منصب رئيس البنك العالمي، ونائب وزير الدفاع الأمريكي وسفير الولايات المتحدة لدى اندونيسيا. كتب مقالا في مطلع التسعينات 7 يوم آذار1992 حدد فيه طبيعة الاستراتيجية التي يجب على الولايات المتحدة تبنيها وهي كالتالي :

« الولايات المتحدة هي القوة العظمى الوحيدة في العالم بعد انهيار الاتحاد السوفياتي ونهاية الحرب الباردة، وعليها الحفاظ على هذه المكانة. هدفنا الأول يتمثل في منع بروز منافسين جدد يهددون النظام العالمي كالذي حصل مع الاتحاد السوفياتي. انها استراتيجية دفاعية إقليمية جديدة تهدف إلى عرقلة ظهور قوة معادية متحكمة في منطقة جغرافية غنية بالموارد الطبيعية، تكون موحدة ومتماسكة، قادرة على أن تتحول إلى قوة عالمية. »[48]

في نيسان من نفس السنة وضح فولفوفيتز أهداف الاستراتيجية الجديدة :

أولا: التصدي للهجمات الخارجية مهما كان مصدرها.

ثانيا : تحصين وتوسيع نظام الدفاع الذي يجمع بين الدول الديمقراطية التي تشاركنا قيمنا داخل منظومة دفاعية مشتركة ضد الاعتداءات الخارجية. تجنب تأميم السياسات الأمنية وضمان بأقل تكلفة عدم حدوث مخاطر للجميع. اولويتنا تكمن في الاتحاد من أجل التصدي للتهديدات، وذلك سيمثل العمود الفقري لاستراتيجية الدفاع الإقليمي.

ثالثا : منع بروز قوة معادية قد تتمكن من السيطرة على منطقة حيوية بالنسبة لمصالحنا، أيضا العمل على تعزيز خطوط الدفاع ضد صعود قوة تهدد مصالح الولايات المتحدة وحلفائها على الصعيد العالمي.

[48] Ukraine entre guerre et paix, p 8.

يبدو جليا أن فصول هذه العقيدة الفلسفية التي رسمت الاستراتيجية الجيوسياسية الأمريكية، ذات طابع امبريالي إلى حد النخاع، الولايات المتحدة حسب فولفوفيتز يجب أن تتكفل بمهام قيادة العالم إلى ما لانهاية، النظام العالمي الذي فرضته بعد الحرب الباردة يجب أن لا يتغير، ولكي تضمن ذلك ما عليها سوى اقناع المنافسين الجدد بأنه لا توجد ضرورة من لعب أدوار مهمة من داخل النظام العالمي أو اتباع سياسة عدائية ضد مصالحها. لا يسمح لأي دولة المساس بالنظام العالمي الذي وضعته الولايات المتحدة وانساق وراءه الغرب، كما أنه غير مسموح بإعادة النظر في المصداقية الأمريكية كقوة عظمى تقود العالم. شرع فولفوفيتز للحرب الاستباقية دون ضوابط أو شروط مقيدة، أي ان واشنطن يمكنها التدخل عسكريا من دون المرور بالمنظمات الدولية، مثل مجلس الأمن أو الأمم المتحدة. حث فولفوفيتز الكونغرس الأمريكي برد فعلي وفوري وحاسم، إذا تعرضت مصالح الولايات المتحدة للخطر، ويمكن في سياق ذلك خرق حق الفيتو، وهو ما حصل مع حرب أفغانستان سنة 2001 وحرب العراق سنة 2003.

نستنتج اذن أن فلسفة فولفوفيتز تقوم على الغطرسة والعنجهية واقصاء الآخر، والخطر الأكبر يكمن في عدم الاكتراث بالقانون، الولايات المتحدة هي فوق القانون العالمي ومسموح لها بخرقه لأنها القوة العظمى الوحيدة ولا منافس لها، نموذجها الاقتصادي هو الأمثل، وبالتالي عليها خرق القانون لفرض رؤيتها وتوجهها الخاص. وصف فولفوفيتز الولايات المتحدة بأنها شرطي العالم world police man توصيف يكشف المقاربة الأحادية، معاملة الدول الأخرى معاملة فوقية متعالية لا معاملة ندية تدعو إلى التشاركية والتعاون، وكأنها معاملة الأب لابنه. وأخيرا نبه فولفوفيتز من الدور الخطير الذي قد تلعبه روسيا في المستقبل، فهذا البلد هو الأقوى عسكريا في أوراسيا، وبالتالي فإنه كان يرى روسيا كتهديد.

خلال فترة حكم الرئيس كلينتون، لم تنتهج واشنطن فلسفة فولفوفيتز، لا ننكر أنها كانت تظهر خلاف ما تبطن، إلا أن العلاقة مع الاتحاد الروسي أثناء التسعينات كانت باردة، صحيح أن إدارة كلينتون لم تعتبر روسيا كتهديد مباشر، ولكن كان هناك نوع من التحفظ والتردد في الانفتاح على موسكو، ناهيك أن كلينتون لم يشجع كثيرا الاستثمار داخل روسيا على الرغم

من حرص يلتسين على ذلك. بدأت العلاقة مع روسيا تتدحرج إلى ما هو اسوأ مع مطلع القرن الواحد والعشرين اثر صعود حزب المحافظين واعتلائه البيت الأبيض سنة 2000. هذا الحزب تبنى فلسفة سياسية ظهرت خلال القرن العشرين في الولايات المتحدة، وهي فلسفة منغلقة لا تؤمن بالتعددية الثقافية وبنسبية الثقافة، أي لا توجد معتقدات وسلوكيات وتقاليد فوق الزمان والمكان أو ميتافيزيقية، ثقافة الانسان عاداته وتقاليده، تتشكل حسب المحيط الذي ترعرع ونشأ فيه، ومصطلح نسبية الثقافة *cultural relativism* أول من استعمله هو فرانز بواس Franz Boas انتروبولوجي أمريكي من أصل ألماني حيث كتب سنة 1887 :

« الحضارة ليست شيئا مطلقا، ولكن نسبي، أفكارنا ومعتقداتنا ليست صائبة إلا في اطار الحضارة التي وجدنا فيها».[49]

سميت هذه الفلسفة السياسية بتيار المحافظين الجدد *neoconservatisme* والرئيس جورج بوش الابن كان من أشد المتحمسين لهذا التيار. سنة 2005 اختار فولفوفيتز ليعمل في ادارته، والرجلان كانا يشتركان في نفس المقاربة الفلسفية، النموذج الأمريكي هو الأمثل ويجب تصديره إلى الدول الأخرى. ان هذه الفلسفة السياسية خطيرة لأنها لا تقر باختلاف وتعدد النماذج الثقافية والاقتصادية، انها تؤمن بصحة نموذج وحيد ينبغي تعميمه على العالم بأسره، وهو النموذج الأمريكي الليبيرالي، ومن أجل تحقيق ذلك لن تتردد الادارة الأمريكية في اشعال الحروب والتدخل عسكريا لفرض الليبرالية، وهي محاولة لأمركة الشعوب قسرا واكراها. وتبعا لذلك، يمتعض المحافظون الجدد من فكرة السلم الدائمة *pascifisme*، فالسلم في نظرهم هو ما ينسجم مع المصالح الأمريكية فحسب.

يعتقد المحافظون الجدد أنهم مكلفين بمهمة مقدسة من عند الرب، تحرير العالم من الظلمات (كل ما لا يتفق مع المقاربة الامريكية اقتصاديا وسياسيا وثقافيا يعد ظلمات) إلى النور(كل ما يتفق مع المقاربة الأمريكية). هذا الاعتقاد متجذر داخل أرضية دغمائية متشددة، تعتبر الآخر المختلف الشر بعينه، وترى نفسها الخير الحامل لرسالة الخلاص والحرية، وذلك

[49] Lowery Robert, Culturel and Ethology.

قريب جدا من أسطورة المهدي المنتظر لدى المسلمين، شخصية بطولية تأتي في آخر الزمان تطبق شرع الله وتنشر العدالة في أرض كثر فيها الفساد والظلم.

إن تلاقي كلا من فلسفة فولفوفيتز وفلسفة المحافظين الجدد حولا الولايات المتحدة إلى دولة وحش، ما انفكت تسعى إلى عرقلة نمو وتطور الدول التي تمتلك لموارد طبيعية وبشرية كافية، تمكنهم من أن يصبحوا قوى إقليمية وحتى عالمية في المستقبل، الصين وروسيا هما أبرز مثال على ذلك. هذه السياسة المتعالية والعدائية التي تبنتها واشنطن مطلع الألفية ستكون السبب الرئيسي الذي دفع روسيا لتغيير سياستها تجاه الغرب، خاصة مع استفحال قضية توسع الناتو شرقا ونشر منظومة الردع الصاروخية في أوروبا.

الفصل الرابع

توسع الناتو شرقا وانقلاب سياسة الاتحاد الروسي

فكرة تأسيس تحالف بين الدول الغربية سمي بحلف شمال الأطلسي NATO ظهرت بعد حصول الاتحاد السوفياتي على السلاح النووي سنة 1949. الهدف الأساسي للحلف يتمثل في تكوين تكتل دفاعي قوي ومتماسك تحت المظلة النووية الأمريكية. في مطلع الخمسينات عديد من الدول الأوروبية انضمت للحلف، اليونان ثم تركيا، وبانضمام الأخيرة بدأ السوفيات يستشعرون أن الناتو بدأ يقترب من حدودهم، ليدقوا ناقوس الخطر يوم 8 أيار سنة 1955، تاريخ انضمام ألمانيا للحلف، وبعد أسبوع مباشرة تأسس حلف وارسو الذي كان نتيجة لمعاهدة فرصوفيا.[50] انقسمت أوروبا بذلك إلى كتلتين شرقية وغربية، الدول التي كانت ضمن حلف وارسو لعبت دور المنطقة العازلة، فالشغل الشاغل بالنسبة للكتلتين هو تجنب الانخراط في صراع مباشر قد ينزلق إلى حرب نووية تفني العالم، وعليه فان السلاح النووي كان دائما ما ينظر إليه على أنه سلاح ردع، أو سلاح استراتيجي على المدى البعيد وليس سلاح تكتيكي على المدى القصير.[51]

بعد تفكك الاتحاد السوفياتي وحلف وارسو حافظ حلف شمال الأطلسي (الناتو)على مكانته، وكنا ذكرنا في الفصل الثاني محاولات غورباتشوف الحثيثة للحصول على ضمانات أمنية تنص على عدم توسع الناتو شرقا، وقد حصل على ضمانات شفوية وليست مكتوبة، واتضح أن تلك الضمانات الشفوية ليست سوى خدعة استراتيجية من الغرب، لأنه لو لم يعطي تلك الضمانات لغورباتشوف ما كان ليقبل بتوحيد الجزء الشرقي لألمانيا بجزئها الغربي. واقع الامر، لم تكن روسيا متخوفة من الناتو خلال فترة التسعينات، لأن البلد تبنى سياسة انفتاحية

[50] Opération Z, p 34.
[51] Ibid.

على الغرب، فالحرب الباردة انتهت بتلاشي الاتحاد السوفياتي وموت الشيوعية ولم تعد هناك حاجة للتصادم مع الغرب.

اعتقد الاتحاد الروسي خلال فترة حكم يلتسن، بضرورة إقامة علاقات جديدة مع الغرب وطي صفحة الماضي المبنية على العداء والكراهية، ودرء مشاعر الرهاب الروسي، (الروسوفوبيا) والرهاب الغربي، أي كل ما هو ضد القيم والثقافة الغربية. سياسة يلتسن رسم معالمها وزير الخارجية الروسي اندريه كوزيريف تقوم على فكرة التوجه نحو أوروبا، وضرورة اندماج روسيا الاتحادية مع الحضارة الغربية.[52] لقد عرفت جميع الحضارات صعود التيارات القومية ذات النزعة الامبريالية والشعور بالتفرد والتفوق تجاه الآخرين. أشرنا في الفصل ما قبل السابق أن روسيا شهدت صعود هذا التيار في تاريخها الحديث. الفيلسوف والمؤرخ القومي الروسي نيكولاي دانيلفسكي Nicolai Danilevski الذي عاش خلال القرن التاسع عشر، كان يعتبر الحضارة الروسية لا تمت بصلة بالحضارة الغربية، وعلى الروس عدم الانصهار في القيم الغربية، وعليهم إقامة قيمهم الخاصة. [53] هذه النزعة القومية تزدري الغرب anti-occidentalisme وتدعو إلى تعميم السلافية، تعاظمت طيلة فترة الاتحاد السوفياتي، ولكن الرئيس يلتسن نجح في كبح جماح هذا التيار معتبرا أن روسيا جزء من أمن أوروبا وعنصرا مهما داخل الكتلة الغربية، ذلك وأن تحديث المجتمع الروسي والنهوض بالاقتصاد يمر بالضرورة عبر ترك هذه النزعة القومية الامبريالية التي ترى الآخر كونه شر خالص.

في المقابل، لم يتخلص الغرب من مشاعر الرهاب الروسي، فعندما نستمع إلى بعض الساسة الروس يقولون "*أن العداء الغربي لروسيا ولكل ما هو روسي بلغ مرحلة خطيرة* " فإن هذا القول ليس محض بروباغندا أو أكاذيب بل هو حقيقة تاريخية، وقد أعلن الرئيس بوتن قبل حربه على اكرانيا أن مشاعر الرهاب الروسي لدى الغرب تجاوزت كل الحدود. عدم تخلص الغرب من الرهاب الروسي أو أن روسيا هي امبراطورية الشر، كان السبب الأول الذي أدى الى انقلاب سياسة روسيا، وقد أصبح ذلك واضحا بعدم وصول حزب

[52]

[53] La Russie et l'Europe, vue sur les relations entre le monde slave et le monde germano-roman.

المحافظين الجدد بقيادة جورج بوش المتأثر بفلسفة فولفوفيتز الامبريالية. سنة 2001، قرر بوش التخلي عن معاهدة مكافحة الصواريخ البالستية anti-ballistic missile المتفق عليها بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة منذ سنة 1973 في موسكو. محتوى هذه المعاهدة ينص على الحد من استعمال منظومات الصواريخ الدفاعية والرفع من مستوى خطر الدمار المتبادل من أجل تشجيع فرص التفاوض بين الجانبين[54]. وفي سنة 2007، بدأت الإدارة الامريكية تتفاوض مع التشيك وبولندا لنشر منظومة صواريخ دفاعية بتعلة درء التهديدات الإيرانية.[55] روسيا اعتبرت أن الصواريخ موجهة ضدها وهي خطوة خطيرة جدا، ومخاوفها من الحصار أصبحت حقيقة.

المؤرخ الفرنسي جورج نيفا George Nivat يرى أن روسيا تعاني من مرض قديم، انه ذهان الحصار، وكأنه يلمح أن مخاوفها من الحصار مبالغ فيها، الى درجة أن الخوف أصبح مرضا عضالا، ولا أدري كيف يقول مثل هذا الكلام وهو مؤرخ مختص في الشأن الروسي، فروسيا طيلة تاريخها الحديث كانت ضحية لسلسلة من الغزوات مصدرها الغرب، حيث تعرضت للغزو من طرف نابوليون بونابارت سنة 1812، وأواخر الحرب العالمية الأولى بين 1918و 1922 من طرف الحلفاء الغربيين، وسنة 1941 من طرف ألمانيا النازية. ألا يعد ذلك سببا كافيا يبرر مخاوف روسيا من الغرب، مخاوف تستند إلى وقائع تاريخية، وليست محض وسوسة مرضية كما تدعى الدول الغربية اليوم. مضي الناتو في التوسع شرقا مطلع التسعينات ضاربا عرض الحائط بمصالح روسيا الجيو استراتيجية كان السبب المباشر لعودة التيار الكاره للغرب، ذلك وأن صعود حزب المحافظين ذو النزعة الامبريالية استفز الاتحاد الروسي مما أدى إلى انقلاب سياسته، من سياسة تؤمن بالشراكة والانفتاح إلى سياسة تقوم على التصادم والسباق نحو التسلح. ثم نجد الدول الغربية اليوم تشن هجوما إعلاميا ينضح كراهية وعداء ضد سياسة روسيا وينعتونها بالدولة الشريرة تعمل ضد القيم الإنسانية، مسكونة بهواجس السيطرة على الآخرين، وتحن إلى ماضيها السوفياتي.

[54] Opération Z, p 38.
[55] Ibid.

لم تكتفي إدارة بوش بنشر منظومة صواريخ دفاعية قريبة من حدود روسيا أو مواصلة دعم سياسة توسع الناتو شرقا فحسب، بل أقدمت أيضا على مساندة ما يسمى بالثورات الملونة، وخاصة تلك التي حصلت في اكرانيا سنة 2004، حيث قدمت دعما إعلاميا وماليا للرئيس فكتور لوشتنكو Victor Louchtchenk ، شخصية معادية لكل ماهو روسي، فترة رئاسته (2005-2010) كانت مضطربة، لأنه ساهم في تمزيق المجتمع الاكراني الذي كان يتكون من شريحة كبيرة من الناطقين بالروسية المتمركزة في منطقة الدونباس شرق أكرانيا، وما كانت تخشى منه روسيا خلال فترة التسعينات، دعم الغرب لصعود التيارات القومية المعادية للثقافة وللسياسة الروسية، أصبح واقعا يجب التعامل معه وعدم التغاضي عنه. ان الثوارت الملونة الى اندلعت مطلع الألفية في كل من جورجيا سنة 2003 واكرانيا سنة 2004، ليست بريئة وعفوية في نظر الكرملين، صحف روسية عديدة علقت على الأحداث وأكدت أن الثورة تلقت دعما ماليا من الخارج، وسهلت وصول لوتشنكو للسلطة كشخصية موالية للغرب ولمصالح واشنطن ومعاديا لبوتن ولروسيا، وقد قيل أن لوتشنكو تلقى 65 مليون دولار من قبل إدارة بوش.[56]

الكاتب والمعارض الروسي الشهير الكسندر سولجنيتسين Alexandre Soljenitsyne شخصية ذات مكانة محترمة داخل الأوساط الروسية، كان من أشد المعرضين للتيارات القومية الامبريالية، كما أنه كان معارضا لسياسة بوتن الخارجية، وبالرغم من ذلك بقي بوتن يكن له الاحترام والتقدير. سنة 2006 اعترف سولجنيتسين أن حلف الناتو يسعى لمحاصرة روسيا بضم الدول تلو الأخرى[57]، وأدان بشدة التيار القومي الأكراني وفظاعاته من خلال طمس الثقافة والهوية الروسية واستغلال الولايات المتحدة لهذا التيار بهدف ضرب المصالح الروسية، ملقيا باللائمة على سياسة يلتسين التي تخلت عن ملايين الروس الذين بقوا يعيشون في اكرانيا بعد تفكك الاتحاد السوفياتي. شهادة سولجنيتسين تعتبر الأقوى حيث تثبت واقعية محاولات حصار روسيا من طرف الغرب، شهادة تأتي على لسان رجل لم يكن مواليا لبوتن ولا للقومية الروسية ذات النزعة الامبريالية، بل كان يدعم

[56] Le Monde diplomatique, janvier 2005.

[57] Guillaume Malaurie, L'Ukraine et la Russie selon Soljenitsyne sur www.historia.fr, 11 mars 2022

الديمقراطية والانفتاح على الآخر، مفضلا انتقال روسيا إلى النظام الديمقراطي ورفع القيود عن الحريات.

يبدو واضحا أن الاتحاد الروسي مع بداية القرن الوحد والعشرين لقي تحديات جيوسياسية عميقة وخطيرة، أبرزها أن الغرب بقي ينظر إلى روسيا كما نظر للاتحاد السوفياتي سابقا، إضافة إلى إصراره على ان يكون العالم أحادي القطبية تحت القيادة الأمريكية، علاوة على تنامي مشاعر الكراهية والازدراء لكل ما هو روسي، وضعية أدت إلى رسم ملامح فلسفة الرئيس فلاديمير بوتن.

الفصل الخامس

الصراع من أجل عالم متعدد الأقطاب

لا ننكر الجانب الإيجابي في السياسة اليلتسينية القائمة على الانفتاح نحو الغرب والتقارب مع واشنطن، غير أن هذه السياسة نفسها عرضت روسيا للإذلال. لم يكن الغرب يحترم الرئيس يلتسن وكانوا ينظرون اليه نظرة الضعيف المستكين، نتيجة منطقية لرجل كان على الدوام مستعد لتقديم التنازلات للغرب، ما جعله رئيسا ضعيفا ومحتقرا، لأن الانفتاح الذي أراده، بالغ فيه فتحول إلى استرضاء للغرب وليس انفتاحا. أبرز حادثة تاريخية تكشف درجة احتقار الغرب ليلتسين، هو ما قلته نائب وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين اولبرايت Madeline Albright في إدارة كلينتون :

« يلتسين موافق على تقديم التنازلات لكن المهم الآن أن نلحق في الحصول عليها عند تناول كؤوس الفودكا».[58]

حادثة قصف حلف شمال الأطلسي صربيا بالصواريخ في 24 آذار 1999، مثل حلقة أخرى من مسلسل اذلال روسيا واعتبارها كدولة تابعة وضعيفة لا كدولة شريكة. صربيا كانت دولة حليفة لروسيا نظرا للتراث السلافي الأرثوذكسي، إلا أنها لم تقدر على مساعدتها عسكريا أثناء القصف، ولم تستطع التحرك داخل مجلس الامن باستعمال حق النقض لأن واشنطن لم تلجأ إلى الأمم المتحدة كما فعلت في حرب الخليج[59]، وضعية تذكرنا بفلسفة فولفوفيتز، ضرورة التدخل العسكري من دون اللجوء إلى المنظمات الدولية، يعني خرق القانون.

في 31 كانون الأول من سنة 1999 استقال الرئيس يلتسن معلنا تسليم منصبه لرئيس الوزراء فلاديمير فلاديميرا فيتش بوتن. تسلم بوتن مهامه كاملة بعد تنظيم انتخابات في آذار

[58] روسيا الأوراسية زمن الرئيس فلاديمير بوتن، ص 40.
[59] ص46 .

من عام 2000 فاز فيها عن جدارة، لأن معظم الروس رأوا فيه الشخص القوي الذي سيتمكن من اخراج روسيا من أزماتها الاقتصادية ومن فساد الرئيس السابق، وخاصة استرجاع كرامتها ووضع حدد لزمن الاذلال. حرب الشيشان الثانية (1999-2009) وانتصار موسكو، كانت مقدمة لفرض معادلة جديدة فرضها بوتن على الغرب، عنوانها "المعاملة بالمثل"، فإذا كان موقف الرئيس يلتسن في كوسوفو يشكل عنوانا لتعامل الغرب معه، فإن موقف الرئيس فلاديمير بوتن في الشيشان يشكل عنوانا لتعامله هو مع الغرب.[60]

خلال السنوات الأولى من حكمه، لم يفقد بوتن الأمل بخصوص إمكانية تغيير الغرب نظرته تجاه رسيا الاتحادية وقبولها كشريك اقتصادي وعسكري، فالرجل ليس كما تدعى وسائل غربية كثيرة اليوم على أنه شخصية امبريالية، تحن للماضي السوفياتي ويرغب في إعادته، ودليلهم على ذلك ما صرح به في 25 نيسان من سنة 2005 :

« يجب أولا الاعتراف أن تفكك الاتحاد السوفياتي كان بمثابة أكبر كارثة جيوسياسية، تحول مع الوقت إلى محنة يعاني منها الشعب الروسي. عشرات الملايين من المواطنين الروس وجدوا أنفسهم خارج حدود الوطن. إن وباء التفكك اصاب روسيا ذاتها.» [61]

يشير بوتن في هذا الخطاب إلى تلك الأقليات الروسية التي بقيت تعيش داخل الدول المستقلة عن الاتحاد السوفياتي، مواطنون متشتتون في أكرانيا قرابة 8 ملايين روسي، كازخستان قرابة 4 ملايين روسي، بيلاروسيا قرابة مليون روسي، أوزبكستان قرابة سبعمائة ألف روسي، مولدافيا قرابة خمسمائة ألف روسي، وبضعة آلاف في دول البلطيق استونيا ولتوانيا ولتفيا، وفي ألمانيا يتواجد قرابة مليون ومائتي ألف روسي. هذه الأقليات خاصة في دول البلطيق لم تكن تتمتع بحقوقها الكاملة، وكأنهم مواطنون من درجة ثانية. إن الدولة التي تحترم شعبها وثقافتها وتاريخها يجب عليها أن تدافع عن مواطنيها المتواجدين في الدول المتاخمة أو البعيدة، وهذا هو السبب الحقيقي الذي دفع بوتن للتصريح كون تفكك الاتحاد السوفياتي كان كارثة جيوسياسية على روسيا، بوتن لا يحن للاتحاد السوفياتي ولا يرغب في عودته لأنه من أشد الرافضين للنموذج الشيوعي الماركسي، مؤمنا أن خروج روسيا منهزمة

[60] ص 47.

[61] Poutine, Maître du jeu, Jacques Baud

من الحرب الباردة يعود لهذا النموذج الذي اثبت قصوره مع الوقت وعدم تمكنه من بناء اقتصاد صلب يواجه الازمات. لقد حافظ بوتن خلال السنوات الأولى من حكمه على فكرة الانفتاح والتوجه نحو الغرب، ولكن ليس على طريقة سلفه يلتسن، إنه انفتاح وفي الآن ذاته استعادة قوة وكرامة روسيا الاتحادية ودورها في المحافل الدولية. بوتن لا يحن للماضي السوفياتي كما ادعى الغرب ومازال يدعي، بل يريد من روسيا أن تتحول إلى رقم فعال وصعب داخل رقعة الشطرنج الجيوسياسية، باختصار إنه يرغب في عالم متعدد الأقطاب، إن عالما متعدد الأقطاب سيكون أكثر امنا واتزانا وعدلا حسب رؤيته. يمكن تلخيص مبادئ فلسفة بوتن الجيوسياسية كما يلي :

أولا : التركيز على برنامج الإصلاح الداخلي على حساب السياسة الخارجية.

ثانيا : الحفاظ على روسيا الاتحادية كقوة نووية عظمى.

ثالثا : تطوير دور روسيا الاتحادية في عالم متعدد الأقطاب لا يخضع لهيمنة قوة عظمى واحدة.

رابعا : العمل على استعادة دور روسيا الاتحادية في آسيا والشرق الأوسط بشكل تدريجي.

خامسا : عدم السماح للغرب بتهميش الدور الروسي في العلاقات الدولية.

سادسا : التخلص تدريجيا من نتائج الحرب الباردة التي تم التعامل فيها مع روسيا الاتحادية على اعتبار الطرف المغلوب.

سابعا : إذا استمر توسع حلف شمال الأطلسي شرقا باتجاه حدود روسيا الاتحادية، فسنعيد دعم الترابط بين دول الاتحاد السوفياتي السابق لحماية منطقة خط الدفاع الأول.

ثامنا : إن روسيا الاتحادية تعارض نظام القطبية الأحادية ولكنها ستعمل مع الولايات المتحدة في قضايا عديدة مثل الحد من التسلح وحقوق الإنسان وغيرها.

تاسعا : ستعمل روسيا الاتحادية على دعم بيئتها الأمنية في الشرق الأقصى عن طريق تقوية علاقاتها مع الصين والهند واليابان.[62]

أمعنت واشنطن تحت قيادة الرئيس بوش في تهميش دور روسيا على الصعيد الدولي، لقد بقيت تنظر إليها كدولة خرجت مهزومة من الحرب الباردة، ناهيك أنها لم تكترث بمعارضة روسيا لغزو العراق، وأصرت على التحرك بطريقة انفرادية، وذلك دليل كاف يكشف تمسك واشنطن بعالم احادي القطبية ولعب دور الشرطي. بقي الغرب طيلة العقد الأول من القرن الواحد والعشرين رافضا لعودة روسيا إلى المحافل الدولية، يريدها دولة مهلهلة ضعيفة ومنكفئة على نفسها، وتمادى حلف الناتو من جهته في التوسع شرقا والاقتراب من الحدود الروسية، والثورات الملونة في كل من جورجيا واكرانيا ماهي إلا محاولة لجعل حكومات هذه الدول موالية للغرب، مما دفع النخب السياسية الروسية على أنواعها إلى اجماع مفاده ان الغرب لا ينوى لا منح روسيا الدور الدولي الذي تستحق في الشؤون العالمية والإقليمية، ولا حتى دمجها في النظام المتعولم، وهو كما فكك الاتحاد السوفياتي في السابق، ينوى الآن تفكيك الاتحاد الروسي نفسه وخنق الأمة الروسية بأنفاسها الداخلية.[63]

غزو العراق ونشر الدرع الصاروخية في أوروبا وتتمدد الناتو شرقا واندلاع الثورات الملونة، كلها عوامل ساهمت في تغير الخطاب الروسي، من خطاب تصالحي، إلى خطاب يبحث عن المواجهة من أجل إعادة مكانة روسيا الدولية. لقد حاول بوتن مرارا استمالة الغرب وتجنب حرب باردة جديدة، ولكن استماتة الغرب في غِيِهِ واستكباره وغطرسته حال دون ذلك، لأنه اعتقد ولا يزال أنه يمثل الانسان الأخير وحلقة التاريخ الأخيرة. ان التغير الفعلي للسياسة الروسية جاء في خطاب بوتن الشهير يوم 10 شباط من سنة 2007 في مدينة ميونخ الألمانية. خطاب يعتبر نقطة تحول كبيرة في تعامل روسيا مع الغرب، خطاب يتميز بالصراحة والجرأة اللامحدودة بعيدا عن مصطلحات التزويق الديبلوماسي، وهنا سنذكر أهم ما ورد فيه :

---

[62] ص 47-48.

[63] روسيا ومواجهة الغرب، د. باسم خفاجي، ص 32.

« أنا ممتن للغاية على دعوتي إلى هذا المؤتمر ذي التمثيل الرفيع الذي جمع سياسيين وعسكريين ورجال أعمال وخبراء من أكثر من 40 بلدا في العالم. إن صيغة المؤتمر توفر لي إمكانية تجنب اللباقة الزائدة عن اللزوم، وضرورة التحدث بقوالب ديبلوماسية منمقة ولكنها فارغة. تتيح صيغة المؤتمر طرح ما يجول في خاطري حقا حول قضايا الأمن الدولي. وإذا بدت أفكاري لزملائنا حادة فأرجو المعذرة وعدم الاستياء فهذا مؤتمر.

(...) إن تاريخ البشرية يعرف بالطبع فترات الحالة الأحادية القطب والسعي للهيمنة العالمية. هل يوجد أمر لم يعرفه تاريخ البشرية الحافل ؟ مع ذلك، ماذا يعين العالم الأحادي القطب ؟ فمهما يجر تزيين هذا المصطلح فإنه سيظل في نهاية المطاف يعني شيئا واحدا فقط في حقيقة الأمر، مركز سلطة واحد، مركز قوة واحد، ومركز واحد لاتخاذ القرارات.

(...) لا يمت هذا الامر بصلة بالديمقراطية طبعا. ذلك أن الديمقراطية هي كما هو معروف سلطة الأغلبية مع مراعاة مصالح الأقلية وآرائهم. هذا عالم بسيد واحد وصاحب واحد للحقوق السيادية ما يعتبر أمرا مهلكا في نهاية الأمر.

(...) أرى أن النموذج أحادي القطب ليس فقط غير مقبول بالنسبة إلى العالم المعاصر بل ومستحيل التحقيق على الإطلاق وليس فقط لأنه في ظل الانفراد بالقيادة في عالمنا المعاصر، المعاصر بالذات لن تكون الموارد العسكرية السياسية ولا الموارد الاقتصادية كافية. الأهم من ذلك هو أن النموذج نفسه لا يعمل لأنه لا يعتمد، ولا يمكن أن يعتمد، على الأسس المعنوية والأخلاقية للحضارة المعاصرة.

(...) إن الإجراءات الأحادية الجانب في الغالب غير قانونية، لم تحل أيا من المشاكل. لا بل علاوة على ذلك، تحولت إلى مصدر لمآس إنسانية وبؤر توتر جديدة.

(...) إننا نرى تزايد الاستخفاف بالمبادئ الأساسية للقانون الدولي. وأكثر من ذلك، في الواقع فإن بعض القواعد الحقوقية المنفردة، تقريبا النظام القانوني برمته لدولة واحدة. وبالطبع تأتي الولايات المتحدة الأمريكية في المرتبة الأولى قد تجاوزت الحدود الوطنية لكل الميادين، في الاقتصاد في السياسة وفي الميدان الإنساني، وتُفرض على الدول الأخرى. لمن يروق هذا الأمر ؟ أكرر لمن يروق هذا الأمر ؟

(...) إن مجموع الناتج المحلي الإجمالي في الهند والصين، وفق قدرات القوة الشرائية، تزيد على ما لدى الولايات المتحدة الأمريكية. أما مجموع الناتج المحلي الإجمالي المحسوب وفق هذا المبدأ لمجموعة الدول التي تضم البرازيل وروسيا والهند والصين فيزيد على مجموع الناتج المحلي الإجمالي لاتحاد الأوروبي، ووفقا لتقييمات الخبراء فإن هذه الفجوة سوف تنمو في المستقبل. لا يجوز الشك في أن الطاقات الاقتصادية لمراكز النمو العالمي الجديدة ستتحول بلا ريب إلى نفوذ سياسي وستعزز نزعة تعدد الأقطاب.

في هذا الصدد ينمو بشكل ملموس دور الدبيلوماسية المتعددة الأطراف. ولا بديل عن الصراحة والشفافية والوضوح في التنبؤ في السياسة. أما حق استخدام القوة فعليا، فيجب أن يكون تدبيرا استثنائيا مثله مثل تطبيق عقوبة الإعدام في الأنظمة القانونية لبعض الدول. لكننا اليوم، وعلى عكس ذلك نلاحظ وضعا متناقضا، عندما تقوم البلدان التي تحظر فيها عقوبة الإعدام، حتى في حق القتلة والمجرمين الآخرين، المجرمين الخطرين نراها رغم ذلك توافق بسهولة على المشاركة في العمليات الحربية التي يصعب اعتبرها قانونية. في هذه النزاعات يقتل البشر، مئات وآلاف الأشخاص من المواطنين الأبرياء يقتلون !

(...) أنا على قناعة تامة، بأنه لا يمكن أن يشكل الآلية الوحيد لاتخاذ القرارات بشأن استخدام القوة العسكرية " بمثابة الإجراء الأخير " إلا ميثاق الأمم المتحدة.

(...) إن السلاح الصاروخي الذي يهدد أوروبا فعليا بمدى ما يقارب من 5 إلى 8 آلاف كيلومتر غير متوافر لدى أي من البلدان التي تسمى " بالدول المارقة ". لن يظهر هذا السلاح الصاروخي وحتى لا يمكن توقع ذلك في المتقبل المنظور. وحتى اطلاق الصاروخ الكوري الشمالي الافتراضي على سبيل المثال، باتجاه أراضي الولايات المتحدة الأمريكية عبر أوروبا الغربية يتعارض بكل وضوح مع القوانين البالستية. يقولون عندنا في روسيا إن هذا يشبه تماما " مد اليد اليمنى إلى الأذن اليسرى ".

(...) أخذت تظهر في بلغاريا ورومانيا ما يسمى بقواعد أمريكية متقدمة خفيفة مؤلفة من 5 آلاف عنصر في كل منها. بالنتيجة، فالناتو يقوم بتحريك قواته المتقدمة نحو حدودنا الدولية، أما نحن فننفذ المعاهدة بحذافيرها ولا نرد على هذه الإجراءات على الإطلاق. اعتقد أنه من الواضح أن عملية توسع الناتو ليس لها أي علاقة بتحديث الحلف نفسه أو صيانة أمن أوروبا. على العكس، إن هذا التوسع يشكل عامل استفزاز جدي يقلل من مستوى الثقة المتبادلة بيننا. لدينا ملء الحق في طرح السؤال وبصراحة : ضد من يجري هذا التوسع وما الذي حل بالتأكيدات التي قدمها الشركاء الغربيون بعد حل معاهدة وارسو ؟ أين أصبحت هذه التصريحات الآن ؟ لا يوجد حتى من يتذكرها. لكنني أسمح لنفسي بتذكير الحضور بما قيل. أود هنا ذكر مقاطع من خطاب الأمين العام لحلف شمال الأطلسي السيد فيرنر في بروكسيل في 17 أيار 1990. لقد قال وقتئذ " إن واقعة استعدادنا لعدم نشر قوات الناتو خارج حدود ألمانيا توفر للاتحاد السوفياتي ضمانات أمنية ثابتة " أين هي هذه الضمانات الآن ؟

لقد تحولت حجارة وألواح جدار برلين الخرسانية منذ أمد، إلى تحف تذكارية. في الوقت نفسه لا يجوز نسيان أن سقوط جدار برلين تم وأضحى ممكنا بفضل الخيار التاريخي، بما ذلك لشعبنا، الشعب الروسي. الخيار التاريخي في صالح التحول نحو الديمقراطية والحرية والانفتاح والشراكة الصادقة مع كل أعضاء الأسرة الأوروبية الكبيرة. أما الآن فيحاولون فرض جدران علينا وخطوط تقسيم جديدة، والتي

بالرغم من كونها افتراضية لكنها تقسم وتقطع قارتنا المشتركة. فهل يا ترى، ستنشأ من جديد حاجة إلى عقود وسنين طوال وتغير أجيال عدة بغية تحطيم وإزالة هذه الجدران الجديدة. » [64]

اكتفينا بذكر أهم ما جاء في خطاب بوتن، واضح أنه يتسم بالجرأة والشجاعة، لقد وضع بوتن اصبعه على الجرح وهو ما تسبب في ظهور حالة من الاستياء الغربي وقتها، حيث كتبت الصحفية الأمريكية آن أبلباوم مقالا بعنوان " وسواس بوتن تجاه أمريكا " في 26 شباط أي بعد أسبوعين من انعقاد مؤتمر ميونخ. حيث تساءلت عن اللغة الجديدة التي استعملها بوتن هل هي تعبر عن بلوغ روسيا طريقا مسدودا في مسار تحولها الديمقراطي؟ أم أن بوتن كان يخاطب بها مواطنيه؟ أم هي ببساطة تشير إلى حدوث تحول ما في سياسات روسيا ؟ ثم كتبت مقالا ثانيا يوم 5 حزيران من نفس السنة بعنوان " بوتن يمارس ألعابا خطرة " بعد زيارة قامت بها إلى معرض موسكو للكتاب لا حظت انتشار الكتب التي تمجد تاريخ الإمبراطورية الروسية والزعماء السوفيات مثل ستالين، وقالت أن موجة جديدة من التقديس لروسيا بعثت من جديد، موجة يرعاها الكرملين الذي يدعم السياسات الخارجية لبوتن ما قد يشكل تهديدا مباشرا للدول المجاورة، ويجب عليه ادراك أنه يمارس ألعابا خطرة. [65]

إن بوتن ليس قوميا أو شيوعيا أو ستالينيا أو يحن للماضي السوفياتي، إنه رجل كما أكدنا وسنعيد التأكيد يبحث عن إعادة روسيا كقوة عالمية تحترمها جميع الدول، وأن فترة الإذلال والاستضعاف والتعامل معها كدولة خرجت مهزومة من الحرب الباردة انتهت، والاتحاد الروسي ليس الاتحاد السوفياتي. ما أراده بوتن هو إعادة الهيبة لبلده التي فقدها بعد تفكك الاتحاد السوفياتي، وعودة روسيا كلاعب رئيسي في الساحة العالمية، وذلك ما أكدته الكاتبة راغدة درغام :

« ما يريده الروس في عهد فلاديمير بوتن هو الاحترام والاحترام الفائق. يريدون مكانا مرموقا ومميزا في المراتب الدولية، وليس مجرد مرتبة عادية ذات مكانة. يريد بوتن أن تؤخذ روسيا ببالغ الجدية وألا تفترض مواقفها لتؤخذ بأنها مضمونة. بوتن يريد متعة قيامه هو بالمفاجأة ولا يريد أن يفاجأ على أيدي آخرين. ومن ضمن أهم ما يريده بوتن هو أن تتعامل الولايات المتحدة وأوروبا مع ملفاته المهمة لروسيا

[64] ص 68-77.
[65] ص 83-84.

بما يلائم موسكو، وإلا أنه جاهز لاستخدام الأدوات المتاحة لديه للانتقام إذا لم يفلح في استخدامها للمقايضة. »[66]

إن العديد من المحللين والإعلاميين الغربيين يخلطون بين روسيا والاتحاد السوفياتي، ولا يزالون ينظرون إلى روسيا اليوم على أنها الاتحاد السوفياتي السابق، فشتان بين الثرى والثريا، وهو ما قد أشار إليه رئيس غرفة التجارة الفرنسية في موسكو ايمانويل كِيدَ Emmanuel Quidet قائلا :

« يوجد فرق كبير بين روسيا التي تعاني من الفوضى والمجاعة، وحقيقة أن البلد متطور ومتقدم. إن مثقفينا الذين يحبون الاتحاد السوفياتي، لا يحبون روسيا.» [67]

صحيفة لو فيغاور الفرنسية كشفت سنة 2012 أن وسائل الإعلام الفرنسية تتعاطى مع الداخل الروسي بكيفية مشوهة ومجانبة تماما للصواب. الصحفية الفرنسية آن دستاكيان اعترفت أن الإعلام الغربي خاصة الفرنسي يبث عادة لقطات تعطي انطباعا للمشاهد أن الكرملين يضم مجموعة من المافيا تحكم البلاد. تلك هي إذن الصورة التي يسعى ولا يزال الإعلام الغربي وحتى الذين يدعون انهم مختصون في الشأن الروسي بثها للعموم، روسيا بلد متخلف اقتصاديا وعسكريا وثقافيا، يعيش في ظل نظام مهترئ وريث الاتحاد السوفياتي. لا بل إن البعض ممن يعتبرون أنفسهم كتاب ومثقفين مثل فلاديمير كامينار الماني من أصول روسية، يزعم أنه لا يوجد أي انجاز تاريخي لروسيا سوى دمية ماتريوشكا .[68] و ما يثير الدهشة والصدمة قوله أن روسيا الاتحادية بلد يضم مائة وأربعين مليون نسمة جميعهم غير دارسين، يتحلون بعدم المسؤولية والكفاءة. [69] تصريح غير مسؤول لرجل يعيش حالة من الرهاب الروسي، الكراهية والحقد لكل ما هو روسي اعمت بصيرته.

عودة إلى خطاب بوتن الذي سبب موجة من الاستياء وخيبة أمل غربية، كان رد وزير الدفاع الأمريكي روبرت غيتس يومها "*إن حرب باردة واحدة تكفي* ". ولا أرى صراحة في خطاب بوتن بوادر اندلاع حرب باردة جديدة، ولكن الرجل أماط اللثام عن عدة حقائق

---

[66] ص67 .

[67] الفرنسية 26 فيفري (شباط) 2012. Le figaro صدر في مجلة

[68] Matriochka وهي علبة صغيرة رسم عليها ملامح دمية بالوان مختلفة نجد في داخلها دمية مماثلة إذا حطمنا العلبة

[69] Anne Dastakian, « Russie. Ce qui se cache derrière la “russophobie.

جيوسياسية واستراتيجية يجب الالتزام بها، فمثلما للولايات المتحدة مصالح تريد حمايتها فكذلك لروسيا مصالح يجب مراعاتها. فمثلا تطالب الولايات المتحدة روسيا بالالتزام بمعاهدة الحد من انتشار الأسلحة التقليدية في حين لا تلتزم بها، ألا يعتبر ذلك قمة في الاستعلاء، ولم تتأخر ردة فعل روسيا بعد خطاب بوتن، لتقدم على تعليق المعاهدة في يوليو سنة 2007، حينها بدأ الغرب يستشعر أن روسيا تحت قيادة بوتن بدأت تتمرد عن إرادته. رد غيتس أن "حربا باردة واحدة تكفي" يكشف أن الساسة الأمريكيين وبعد مرور قرابة عقدين من تفكك الاتحاد السوفياتي، يحسبون أن روسيا وريثة هذا الأخير، بلد قبع في التخلف ولا يزال ضعيفا عسكريا واقتصاديا، وذلك يعد خطأ استراتيجيا فادحا، لأنه إذا أردت هزيمة خصمك فعليك دراسة خباياه، خطأ سقطت فيه الولايات المتحدة الأمريكية قبيل اندلاع الحرب الروسية الأكرانية كما سيأتي.

ظلت الولايات المتحدة تحت إدارة بوش تنظر إلى روسيا على أنها بلد عدو، ما يفسر محاولة إهانته وجرح كبريائه طيلة العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، ومع الأزمة الجورجية التي اندلعت سنة 2008، أدرك الداخل الروسي بوضوح أن الأصابع الغربية تعبث بكل المصالح الروسية في منطقة القوقاز، وأنه لا نهاية لطموح الولايات المتحدة إلا بالتصدي له وأن الحوار ليس هو الطريق الأمثل لتحقيق ذلك. إن سياسة الانفتاح على الغرب لم تؤتي بثمارها، وعوضا أن يدمج الغرب روسيا في منظومة أمنية مشتركة أصبح يناصبها العداء، مما حدى بكثير من المراقبين والمحللين الروس أن الحوار البناء بين الغرب وروسيا قد مضى إلى غير رجعة في الحقبة القادمة،[70] وذلك ما ستتضح معالمه مع فلسفة الرئيس ديمتري مد فيديف في خضم الأزمة الجورجية.

[70] روسيا ومواجهة الغرب، ص 36.

الفصل السادس

من مرحلة التصدي للإهانة إلى مرحلة تحدي الهيمنة

لقد استعادت روسيا الاتحادية خلال فترة حكم الرئيس فلاديمير بوتن (2000-2008) عافيتها الاقتصادية والعسكرية. الاقتصاد الروسي أصبح مستقرا ويسجل نموا متواصلا، تحسن مستوى معيشة السكان، فبعد أن كانت روسيا زمن الاتحاد السوفياتي تستورد القمح من أمريكا أصبحت من أوائل البلدان المصدرة. أما عسكريا، التمكن من بناء منظومة عسكرية رادعة وفعالة. وضع حد لعهد الإذلال لن يتأتى إلا عبر احترام الكتلة الغربية لروسيا، وذلك سيكون مستحيلا إذا لم تدخل روسيا في موجة من الإصلاحات الكبرى، ونجاح روسيا في تحقيق هذه الإصلاحات سمح لها بالانتقال إلى مرحلة التصدي للإهانة، وهذا التصدي تمظهر للعالم في خطاب بوتن الشهير في 10 شباط من سنة 2007. عندما دخل الرئيس ديمتري مدفيدف الكرملين وتسلم مقاليد الحكم في آذار من سنة 2008 ، أصبحت روسيا قادرة على الرد على الانتهاكات الغربية وخصوصا الأمريكية، علما وأنها لم تكن كذلك طيلة فترة التسعينات، رأينا أنها لم تقدر على مساعدة صربيا البلد الحليف حينما تعرض للقصف بصواريخ حلف الناتو.

ما انفكت إدارة واشنطن بقيادة الرئيس بوش تستفز روسيا وتصر على تحجيم دورها الجيوسياسي، والحرب الجورجية الروسية كانت نتيجة لهذا الاستفزاز مثلها مثل الحرب الروسية الأكرانية. دعا بوش خلال افتتاح لقمة حلف شمال الأطلسي في بوخارست إلى ضم كل من جورجيا واكرانيا للحلف، ليأتي الرد الروسي على لسان وزير الخارجية سيرغي لا فروف :

« روسيا لن تقف مكتوفة الايدي أمام قرار توسيع الحلف باتجاه أكرانيا وجورجيا، وان موسكو لن يكون ردها مماثلا لطريقة طفل صغير تعرض للضرب في المدرسة واكتفى بصفع الباب، والذهاب إلى غرفة الصف باكيا.» [71]

الجملة الأخيرة في رد لا فروف ملفتة للنظر، انه تلميح مبطن أن روسيا من هنا فصاعدا لن تكتفي بالأقوال بل ستمر إلى الأفعال. خلال السنوات الثمانية، تصدت روسيا للإهانة الغربية بفضح سياساتهم العدائية ورهابهم تجاه كل ما هو روسي، واعتقدت واشنطن أن موسكو ستبقى في إطار الاقوال والتهديدات، لأنها اعتقدت مع حلفائها أن روسيا ليست سوى دب من ورق،[72] وهي لا تستطيع مطاحنة الغرب. مشكلة روسيا مع جورجيا بدأت منذ 2002 عندما قبلت انتشار بعض الجنود الأمريكيين على أراضيها بدعوى محاربة الإرهاب، كما دربت واشنطن الجيش الجورجي وسلحته. الثورة الملونة التي اندلعت سنة 2003 أدت إلى وصول حكومة مناهضة لروسيا بقيادة الرئيس ميخائيل ساكاشفيلي، شخصية موالية للغرب عمل على الانضمام لحلف شمال الأطلسي، وقد أقدم هذا الرئيس على الاعتداء عسكريا على إقليم ابخازيا واوسيتيا الجنوبية في 7 أغسطس سنة 2008 اللذين يضمان أقليات تتحدث بالروسية وترغب في الحصول على حكم ذاتي داخل جورجيا. طبعا فإن الغرب لم يحرك ساكنا تجاه تلك الاعتداءات لتلقي روسيا بثقلها عسكريا في الداخل الجورجي من أجل حماية مواطنيها.

منذ الساعات الأولى للحرب أعلن مدفيدف عن فلسفته الجيوسياسية، مفادها أن روسيا ستحمي مواطنيها أينما وجدوا. تتلخص فلسفة مدفيدف من خمس نقاط يجب ذكرها لأنها ستساعدنا على فهم الحرب الروسية الاكرانية.

- إن روسيا تعترف بأولوية مبادئ القانون الدولي الأساسية.
- العالم يجب أن يكون متعدد القطبية، والعالم أحادي القطبية غير مقبول.
- روسيا لا تبحث عن مواجهة مع الدول الأخرى، عزل دولة عن الساحة الدولية لا ترغب فيه موسكو.

[71] ص 46.
[72] ص 48.

- حماية حياة وكرامة مواطنينا في أي بلد كانوا أولوية لا نقاش فيها بالنسبة لروسيا.
- هناك مناطق فيها مصالح لروسيا تحملنا للدفاع عنها. هذه المناطق هي التي تضم بلدانا تجمعنا معهم علاقات تاريخية ضاربة في القدم.[73]

هذه النقاط تكشف أن الاتحاد الروسي سيتدخل بطريقة عسكرية مباشرة في حالة تعرض الاقليات الروسية إلى تهديد، وذلك يعتبر قمة الجرأة والتحدي، لأن انتهاك سيادة دولة مجاورة من أجل حماية المواطنين الروس ما كانت أن تقدم عليه روسيا لو كانت ضعيفة ومنكسرة، علما أنها سلكت السبيل الديبلوماسي أولا قبل الذهاب إلى الخيار العسكري. إن الأزمة الجورجية دامت أياما معدودة ولم تتحول إلى صراع دولي مثل الحرب الأكرانية، ولكنها بعثت برسائل خطيرة للغرب، أولها أن روسيا انتقلت من مرحلة التصدي للإهانة إلى مرحلة تحدي الهيمنة، هيمنة الغرب والناتو وعلى رأسهم واشنطن، ولن تقبل أبدا بعالم أحادي القطبية، ولئن لم ترد الفعل في أواخر التسعينات على انضمام بولندا ثم دول البلطيق سنة 2004 لحلف الناتو، فإنها ستقف كجدار منيع أمام سياسته التوسعية الاستفزازية وستكسر إرادته ولن تقبل بابتلاعه جورجيا ومن بعدها اكرانيا، موجهة في آن برسالة قوية لدول الاتحاد السوفياتي السابق كون استبدالهم واشنطن بموسكو لن يضمن لهم أبدا الحماية.

لقد تحول الاتحاد الروسي بعد الأزمة الجورجية مصدر إزعاج كبير لأحلام الغرب بالانفراد بقيادة العالم، وسعى واشنطن الحثيث منذ نهاية الحرب الباردة لوأد إمكانية صعود قوة عسكرية وسياسية تنافسها في المستقبل ذهبت أدراج الرياح، فها هي روسيا نجحت في أواخر العقد الأول من القرن الواحد والعشرين من فرض معادلة جيوسياسية جديدة، قوامها بداية التمرد على الإرادة الغربية، وكان قد أكد الباحث الامريكي في العلاقات الدولية ديمتري

[73] Jeffrey Mankoff, Russian Foreign Policy: The Return of Great Power Politics, Rowman & Littlefield, 2011, p 345.

ترنان، على ضرورة وقف واشنطن عودة وصعود روسيا كقوة متمردة تسعى على الانتقام قبل فوات الأوان.[74]

اتهمت روسيا عقب الحرب الجورجية بانها دولة تفضل العنف لا الديبلوماسية، مع أنها طيلة التسعينات وبداية الألفية ما فتئت تحاول مد جسور الحوار وإقامة الشراكة مع الغرب ولكن كل ذلك ارتطم بجدار كبرياء وغرور الغرب واصرارهم على عدم الاعتراف بروسيا كقوة إقليمية وعالمية صاعدة والامعان في الضرب بمصالحها وأمنها القومي عرض الحائط، وقد عبرت الصحف الألمانية يوم 29 اغسطس سنة 2008 عن هذه الوضعية الجيوسياسية :

« لم تسعى الولايات المتحدة ولا حلف الناتو ولا الاتحاد الأوروبي على سلوك طريق الحوار، وكانت الفرصة متاحة لذلك في المجلس المشترك بين الناتو وروسيا وفي قمة مجموعة الثماني. لكن الغرب وقف موقف المعاند وضرب المقترحات الروسية بشأن المصالح المتبادلة عرض الحائط. لقد آن الأوان للعودة لأخذ الكرملين كشريك حوار مأخذ الجد، بدلا من توجيه اللوم إليه. وهنا فإن على ألمانيا بوجه خاص أن تلعب دورا مهمان إذ أن قربها الجغرافي من روسيا يحتم عليها أن تقوم بدور الوسيط، كما أنه ليس من مصلحتها نشوب حرب باردة جديدة » .[75]

ونختم هنا بما قاله الباحث الإسرائيلي شلومو بن عامي في صحيفة يديعوت احرنوت يوم 9 أيلول 2008 :

« إن روسيا بتحطيمها الاحتكار الأمريكي لاستعمال القوة وحدها، وبغزوها دولة تعد صديقة للولايات المتحدة، وهو شيء لم يجرؤ حتى الاتحاد السوفياتي على فعله قط، تتحدى الهيمنة الأمريكية بعد انكسار الاتحاد السوفياتي في الحرب الباردة.»

[74] روسيا ومواجهة الغرب ص 66.
[75] ص 36.

الباب الثاني

فصل ثان من تحدي الهيمنة من خلال صراع الارادات

الفصل السابع

التقارب بين اكرانيا والغرب واندلاع أحداث المايدن

إن محاولات اقتراب الغرب من أكرانيا ليست بحديثة العهد، لقد انطلقت منذ تسعينات القرن الماضي، حيث حث بريجينسكي في كتابه الولايات المتحدة على التوغل سياسيا واقتصاديا وثقافيا داخل هذا البلد وتحويله إلى قاعدة من اجل احتواء روسيا وضرب مصالحها وثنيها من أن تتحول إلى قوة إقليمية وعالمية. وبعد الازمة الجورجية وخروج روسيا منتصرة، جرح الغرب في كبريائه، وظاهرة الرهاب الروسي تعاظمت أكثر خاصة مع عودة فلاديمير بوتن للكرملين سنة 2012. أواخر سنة 2008 أطلق الاتحاد الأوروبي مشروع تحت مسمى الشراكة الشرقية Eastern partnership في ظاهره اقتصادي يرفع شعارات تعزيز التجارة الحرة ونشر قيم الليبرالية والديمقراطية وحقوق الإنسان ولكن في باطنه جيواستراتيجي، غايته تطويق الاتحاد الروسي وتهديد امنه القومي من خلال اسقاط مشروع الاوراسية وضمان وصوله إلى مصادر الطاقة.[76]

كان لدى الاتحاد الروسي مخاوف جدية تجاه هذا المشروع، قد ينتهي إلى إقامة منطقة نفوذ غربية متاخمة لحدوده وتضرب مصالحه. سيكون الغرض الأساسي من المشروع هو تحقيق تقارب مع الجمهوريات السوفياتية السابقة وإخراجها من الفلك الروسي الاوراسي ومن ثم ادماجها في الاتحاد الأوروبي تمهيدا لضمها إلى حلف الناتو، وقد تأكدت هذه المخاوف عندما صرح وزير الخارجية التشيكي بالقول :

« يجب على روسيا الاتحادية أن تفارق تخيلاتها بصدد مصالحها الخاصة خارج حدودها، مشيرا إلى أنه يجب أن يرسم في بعض الأحيان خط أحمر لا يتنازل بعده الاتحاد الأوروبي أمام روسيا الاتحادية »[77].

[76] روسيا الأوراسية زمن فلاديمير بوتن، ص 269-272.
[77] ص 273.

لا يسعني سوى أن أقول إنه تصريح استفزازي لا يقيم وزنا لمصالح روسيا الجيوسياسية والاستراتيجية. أملت الخارجية الروسية بأن لا يتعارض مشروع الشراكة الشرقية مع مصالحها الجوهرية ويجب ان تؤخذ بعين الاعتبار. ولقد طمأن وزير الخارجية البولندي سيكورسكي نظيره الروسي، كون التقارب التجاري مع هذه البلدان لن يمس بروابط موسكو الاقتصادية معها، وخلال المؤتمر السنوي في 22 آذار 2009 في لوكسمبورغ، خاطب لافروف وزراء خارجية الاتحاد الأوروبي قائلا:

« إننا نعول على أن مشروع الشراكة الشرقية لن يسير على الطريق الذي أعدته المفوضية الأوروبية حيث عقدت مؤتمر منظومة نقل الغاز الأكرانية وناقشت مسائل تمس مصالح روسيا الاتحادية بدون مشاركتها متسائلا عما كانت هذه المحاولات الاوروبية تندرج في اطار نشر الديمقراطية أو سياسة ابتزاز الدول ومنعها من التعبير عن نفسها كدول مستقلة. مضيفا ان روسيا الاتحادية تأمل بأن لا يكون هناك محاولات أوروبية لخلق خطوط فاصلة جديدة. » [78]

إن مشروع الشراكة الشرقية يبدو بريئا في ظاهره، يقوم على تعزيز التعاون الاقتصادي والأمني مع دول الاتحاد السوفياتي السابق، ولكن في باطنه هو خطة من أجل ضرب المشروع الأوراسي الذي يضم روسيا كازاخستان طاجكستان اوزباكستان وروسيا البيضاء، بتعبير آخر، اجهاض تكوين تكتل بين هذه الدول وابعادها نهائيا عن موسكو. تشرين الثاني من سنة 2013 انعقدت قمة فلينوس لتصب الزيت على النار، حيث هيمنت على القمة أجواء متوترة جراء قرار الرئيس الأكراني فكتور يانوكوفيتش الموالي لموسكو تأجيل التوقيع على اتفاقية الشراكة الاقتصادية مع الاتحاد الأوروبي، لتعلو أصوات القادة الغربيين قائلة " إن موسكو ضغطت على الرئيس الأكراني لكي لا يوقع ومارست عليه تهديدات". لقد تغافلت الدول الغربية حينها أن الشعب الأكراني لم يكن في معظمه داعما لاتفاقية الشراكة الاقتصادية مع الغرب، قرابة نصف الأوكرانيين خاصة المتواجدين في الضفة الشرقية كانوا رافضين للتوجه غربا، ويريدون المحافظة على علاقات اقتصادية وسياسية قوية مع موسكو. سنة 2013 نظمت إحصائية من طرف المعهد الدولي لعلم الاجتماع بكييف، خلصت كون المجتمع منقسم بين الذين يرغبون في شراكة مع الاتحاد الأوروبي والذين يرغبون في شراكة مع

[78] ص 274.

موسكو. إن بنية الاقتصاد الأكراني منسجمة أكثر مع السوق الروسية وغير مهيأة لمنافسة السوق الأوروبية، وقد كان الرئيس يانوكوفيتش متخوفا من أن قطع الروابط الاقتصادية مع موسكو سيزيد من اضعاف اقتصاد بلاده.[79] من جهة ثانية، فإن كييف بالنسبة لموسكو هي جزء لا يتجزأ من تاريخها، والشعبين هما في الواقع شعب واحد، وبالتالي توجه كييف غربا من دون الحفاظ على أواصر القرابة مع موسكو سيكون مرفوضا جملة وتفصيلا، فالوضعية يمكن مقارنتها بالولايات المتحدة وبريطانيا، هذين البلدين يشتركان في التاريخ والثقافة، والبريطانيون هم من وضعوا اللبنات الأولى لأمريكا، فهل ستقبل واشنطن من أن تقيم بريطانيا علاقات ودية مع موسكو أكثر مما يجمعها بواشنطن؟ طبعا لا.

خلال القمة أدان قادة الاتحاد الأوروبي ضغوطات موسكو التي مارستها على الرئيس الأكراني، صحيح أن موسكو مارست تلك الضغوطات ولكن من اجل الحفاظ على علاقاتها الاقتصادية بكييف، لأنها علمت سلفا أن الدول الغربية تسعى جاهدة إلى وضع جدار يفصل بينها وبين كييف. والمثير حقا للغرابة، كون دول الاتحاد الأوروبي يمارس ولا يزال عليها ضغوطا من واشنطن وتنصاع رغما عن أنفها للإرادة الأمريكية، فالأوروبيون إرادتهم السياسية والاقتصادية رهينة البيت الأبيض، ثم نسمعهم يتبجحون بالاستقلالية والسيادة وهم فاقدون لها. دعا يانوكوفيتش أثناء القمة إلى حوار ثلاثي، أي تشريك موسكو في الاتفاقية، وهذا دليل يكشف أن موسكو لم تكن رافضة لفكرة الشراكة الاقتصادية بين كييف والغرب شريطة الحفاظ على مصالحها مع جارتها. خلاصة القول، موسكو تريد من اكرانيا أن تكون بلدا منفتحا على الغرب والشرق في آن، وذلك ما لم يقبله الاتحاد الأوروبي، متحدين إرادة موسكو بالقول " *لا مكان لموسكو داخل الاتفاقية والكرملين لن يكون محطة اجبارية في طريقنا شرقا* "،[80] مما يعنى ان الغرب لم يستفد من تداعيات الازمة الجورجية، ممعنا في الكبرياء والغطرسة، وعندما يجري الحديث عن مصالح روسيا الاتحادية يصاب بالصم والعمي.

في خضم القمة صرح الرئيس بوتن قائلا:

[79] Opération Z, Jacques Baud

[80] روسيا الأوراسية، ص277.

« إن توقيع اكرانيا المحتمل على اتفاقية الشراكة مع الاتحاد الأوروبي يعتبر شأنا داخليا لهذا البلد، وانضمام اكرانيا للاتحاد الجمركي الذي يضم كلا من روسيا الاتحادية وروسيا البيضاء وكازاخستان سيصبح عدها أمرا مستحيلا».[81]

تخشى موسكو من تدفق سلع قادرة على المنافسة إلى السوق الروسية في حالة انضمام تلك الدول لمنطقة التجارة الحرة مع الاتحاد الأوروبي، وهو ما جعلها تلوح بالتهديد بفرض عقوبات تجارية وفي مجال الطاقة ضد الجمهوريات الست في حال انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي. إنها إجراءات استباقية لحماية سوقها من إمكانية تدفق البضائع الأوروبية، وهو أمر عادي بالنسبة لدولة كبيرة مثل روسيا، لديها نفوذ إقليمي وعالمي واسع النطاق، ولو تعرضت الولايات المتحدة الامريكية للوضعية نفسها لكانت ردة فعلها مماثلة. اثناء هذا الشد والجذب، بدأت المعارضة الأكرانية الموالية والمدعومة من الغرب بالتدفق إلى ميدان الاستقلال وسط كييف العاصمة، والمتظاهرون رفعوا لا فتات كتب عليها "*من أجل التقارب مع أوروبا*". تحرك سرعان ما هرعت واشنطن لمساندته ورأته فرصة مناسبة لإخراج هذا البلد من منطقة نفوذ موسكو، هذه المظاهرات سميت بأحداث المايدن أو أورو مايدن *euromaiden*، وهي في واقع الأمر ليست بريئة لأنها ساهمت في تأجيج التورات الاثننية والثقافية في بلد يتركب من أقليات متعددة. الاتحاد الأوروبي كان سببا مباشرا في اختلاق صدام بين روسيا واكرانيا حسب الصحفي الفرنسي أرنو دوبيان Arnaud Daubien حيث كتب في جريد لو موند :

« أكرانيا بلد متشظي، يتركب من هويات مختلفة ومتعددة، ما يجعله غير قادر على أن يختار توجهه، لا من ناحية الشرق ولا من ناحية الغرب. الخطأ الفادح الذي اقترفته بروكسل هو الضغط على كييف بأن تختار الغرب وتدير ظهرها لموسكو، وقد كان ذلك خيارا انتحاريا بالنسبة لهذا البلد.[82]»

حاولت المعارضة الضغط على الرئيس الأكراني للقبول بالشراكة مع الغرب، واتسعت المظاهرات لعشرات الآلاف الرافضين للإملاءات الروسية، مندفعين لغلق النافذة الشرقية وإبقاء النافذة الغربية فقط، غير أن موسكو اعتبرت أحداث المايدن أزمة مفتعلة من الغرب

[81] ص 278.

[82] Opération Z

وفي مقدمتها الولايات المتحدة. طلب بوتن من الغرب عدم تسييس المسألة والقبول باقتراح يانوكوفيتش، عقد مشاورات ثلاثية، أوروبية – اكرانية – روسية لدراسة مخاطر انضمام اكرانيا إلى اتفاقية التجارة الحرة مع أوروبا، خاصة أن أكرانيا ترتبط مع روسيا الاتحادية ومنظمة صداقة الدول المستقلة باتفاقية مماثلة. وهذه اشارة واضحة أن موسكو لم تكن رافضة لمشروع شراكة كييف مع الغرب وذلك ما أكده فردريكو سانتوبنتو Frederico Santopinto - باحث في وكالة السلم والامن ببروكسل - كون روسيا لم ترفض الاتفاقية الأوروبية ولكن ليس على حساب علاقاتها مع اكرانيا، إن الاتحاد الأوروبي هو من رفض تواجد اتفاقين في آن، الأوروبيون يعتبرون اكرانيا كحدود أخيرة بين الشرق والغرب في حين تعتبرها روسيا كجسر بين الشرق والغرب. [83]

اعتبر القادة الأوروبيون أن انضمام اكرانيا إلى اتفاقية التجارة الحرة شأنا ثنائيا بخلاف الرئيس الأكراني يانوكوفيتش الذي أكد أن الوجود الروسي كطرف في هذه المشاورات أساسي. أراد الرئيس بوتن إيجاد حلول اقتصادية للأزمة المفتعلة، فدعا يانوكوفيتش إلى الكرملين في 17 كانون الأول 2013. أثناء هذا اللقاء الثنائي أعلن بوتن أن روسيا سوف تستثمر 15 مليار دولار أمريكي في سندات حكومية اكرانية وستخفض بمقدار الثلث سعر الغاز الذي تصدره إلى كييف. الجدير بالذكر أن اكرانيا خلال أحداث المايدن كانت تعيش أزمة اقتصادية خانقة، وقد رغبت في الحصول على قرض من صندوق النقد الدولي إلا أن شروطه كانت متشددة،[84] وما صندوق النقد إلا عصا في يد واشنطن من أجل فرض سياساتها وتوجهاتها على الدول الأخرى، تشدد الصندوق مع كييف كان من وراءه دفعها قسرا واكراها للتوجه غربا وقطع علاقاتها مع موسكو. لقد ساندت موسكو موقف كييف اقتصاديا، ومنحتها قرضا من دون شروط، كانت مستعدة لإخراج جارتها من أزمتها ما يمكنها من الاستغناء عن الصندوق والأهم من ذلك الانفلات من كماشة الابتزاز الغربي. وصف الرئيس الأكراني لقاءه مع الرئيس الروسي بالاستراتيجي، وأن الاتفاق بينهما كفيل بإخراج كييف من أزمتها الاقتصادية ووضع حد لأحداث المايدن. لكن هيهات، فحركة الاحتجاج ليست بريئة لأنها ذات

[83] Ibid.

[84] روسيا الأوراسية، ص 277.

مرامي سياسية، فالمشكل يكمن في قطع الأواصر نهائيا مع موسكو والارتماء في أحضان الكتلة الغربية. لقد استغلت واشنطن وحلفاءها الأوروبيين أحداث المايدن لإسقاط ينوكوفيتش الذي وجه رسالة صادمة للغرب بعد عودته من موسكو وذلك بطرد من فاوض الاتحاد الأوروبي على اتفاقية الشراكة، لأنه أضر بالمصالح الوطنية. كان شعور الأوروبيين بأن روسيا جادة تماما في منع أكرانيا من التقارب معهم، وهم يرفضون أي حوار ثلاثي يعترف بنفوذ موسكو في مشروعهم الطموح للشراكة الشرقية. [85]

ألقى الغرب بكل ثقله من أجل مساندة المعارضة الأكرانية الموالية للغرب، لنجد في المظاهرات شخصيات غربية بارزة، رئيسة برلمان لتوانيا لوريتا غروزينييني، حيث أكدت أن أكرانيا جزء من أوروبا. أيضا حضرت خصيصا مساعدة وزير الخارجية الأمريكي لشؤون أوروبا وأوراسيا فكتوريا نولاند من أجل دعم المعتصمين في ميدان الاستقلال وسط كييف وقامت بتوزيع الكعك الأمريكي عليهم، كما التحق السيناتور الأمريكي جون ماكين بالمتظاهرين وساندهم.[86] يبدو مفهوما إذن ضغط الغرب على الرئيس يانوكوفيتش وحكومته للتوقيع على اتفاقية مشروع الشراكة مع أوروبا من خلال توظيف الشارع، لأنهم يعلمون سلفا أن مزيدا من تمدد نفوذهم شرقا لن يتحقق إلى عبر كييف، وهو ما لم تغفل عنه موسكو بطبيعة الحال. إلا أن أحداث المايدن سرعان ما انحرفت واتخذت مسارا مأساويا وكارثيا، لقد تحولت الاحتجاجات إلى نزاع مسلح وفوضى عارمة دفعت البلد إلى شفى الحرب الأهلية. النصف الغربي لأكرانيا كان عاملا حاسما، حول الحركة الاحتجاجية من سلمية إلى دموية، فالغرب الأكراني يعد بؤرة الأحزاب والتيارات القومية المتشددة المناهضة لروسيا ولثقافتها ولشعبها، وقد أشرنا أن أكرانيا بلد منقسم بين شرقه الموالي لموسكو وغربه الموالي لأوروبا. سيطر القوميون المتطرفون على شوارع كييف واحتلوا مؤسسات حكومية كمحاولة لترهيب يانوكوفيتش من أجل توقيع على اتفاقية الشراكة منددين بالاتفاقية مع موسكو.

طالبوا بإقالة الحكومة وتشكيل حكومة تكنوقراط والشروع في تحضير انتخابات برلمانية ورئاسية مبكرة، حيث أن الانتخابات الرئاسية الاعتيادية مقررة في عام 2015

[85] ص 280.
[86] ص 282-283.

والبرلمانية في عام 2017. أخذ الصراع المتصاعد بين المعارضة الاكرانية والرئيس يانوكوفيتش منحى خطيرا مع سقوط العشرات من القتلى والمئات من الجرحى خلال الاضطرابات، وأصبحت البلاد مهددة بحرب أهلية دامية بين شرقها وغربها، واتفقت الحكومة والمعارضة على بدء مفاوضات تهدف إلى إنهاء سفك الدماء وإعادة الاستقرار من أجل الوصول إلى السلم الاجتماعي، وقد تم التوصل إلى هدنة بين يانوكوفيتش وزعماء المعارضة الثلاثة الرئيسيين.[87] لقد أبدت حكومة يانوكوفيتش حسن نيتها مع المعارضة ومع القوميين المتطرفين بهدف التوصل إلى اتفاق يرضي الجميع وتجنيب البلاد ما لا يحمد عقباه، غير أن هؤلاء القوميين كان هدفهم الأساسي اسقاط يانوكوفيتش وإقامة نظام جديد موال للغرب، فلم يتوانوا في تأجيج الأزمة بالرغم من نجاح الهدنة، فاحتلوا المباني الحكومية وهاجموا مقرات الحزب الحاكم وحاولوا اقتحام البرلمان.

ما حصل لا يمت بصلة بالثورة ولكنه في نظر موسكو هو انقلاب مسلح قاده مجموعة من المتطرفين من أجل تركيز أسس نظام معادي لروسيا الاتحادية. بعض الأشرطة انتشرت على وسائل التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام كشفت أنه يوجد من بين منظمي الانقلاب شخصيات تتحدث باللغة الإنجليزية، مما يعني أنهم ليسوا أوكرانيون ولكن من دول أجنبية. مجلة دير شبيغل الألمانية أشارت إلى تواجد بعض المرتزقة التابعين لمنظمة بلاك واتر Blackwater الامريكية، كما سربت قناة بي بي سي BBC فيما بعد مكالمة هاتفية دارت بين فكتوريا نولاند والسفير الأمريكي في كييف جوفري بيات، مفادها أن واشنطن اختارت مسبقا أعضاء الحكومة الجديدة التي ستخلف حكومة الرئيس المخلوع يانوكوفيتش.[88] أدلة كثيرة تشير إلى أن أحداث المايدن هي انقلاب مدعوم من الغرب، ولقد صرح جورج فريدمان رئيس المنصة الأمريكية الجيوسياسية STRATFOR لجريدة روسية قوله :

« روسيا اعتبرت الأحداث التي اندلعت في بداية 2014 كانقلاب، في الحقيقة، لقد كان انقلابا بأتم معنى الكلمة[89] » .

---

[87] ص284-285.

[88] Opération Z

[89] Ibid.

ما يدلل على أن أحداث المايدن هي قلب لنظام الحكم بالقوة، هو عدم قبول المحتجين اعلان الرئيس يانوكوفيتش تنظيم انتخابات رئاسية مبكرة وإطلاق اصلاح دستوري يرمي إلى نقل جزء من صلاحياته على البرلمان والحكومة، فمن الواضح أن يانوكوفيتش لم يكن متمسكا بالسلطة حريصا على نقلها بطريقة سلسة، وهي بنود اتفاقية بين الحكومة والمعارضة صدرت يوم 21 شباط وافق عليها الجانب الروسي. إن انتقالا سلسا وسلميا للسلطة سيتعارض حتما مع مشروع التيارات القومية المتطرفة المدعومة من الغرب، لأن تنظيم انتخابات نزيهة قد لا يفضي إلى صعود نظام موال للإرادة الغربية، وبالتالي كان لزاما التخلص من يانوكوفيتش باللجوء إلى الفوضى والعنف، وهو ما حصل بالفعل، حيث صوت مجلس الرادا (البرلمان الأكراني) الغاء عملية مكافحة الإرهاب وأمر بسحب الجيش من الثكنات ومنع وزارة الداخلية من التصدي للمحتجين وإقرار قانون جديد يقضي بالعودة إلى دستور 2004.[90] لقد أصبحت كييف ليلة السبت 22 شباط 2014 في حالة من الفوضى الخلاقة، القوميون المتطرفون احتلوا الشوارع وعاثوا فيها فسادا في ظل غياب مقصود من الشرطة، وفي الأثناء غاب يانوكوفيتش عن المشهد وغادر إلى المنطقة الشرقية تمهيدا لنقله إلى روسيا. طالبت موسكو كييف والغرب بتنفيذ اتفاقية 21 شباط وإنهاء الحالة الانقلابية، لكن واشنطن وحلفاءها الأوربيين رفضوا اعتبار أحداث المايدن انقلابا واعترفوا بشرعية السلطات الجديدة.

[90] روسيا الأوراسية، ص 287.

الفصل الثامن

صعود التيارات اليمينية المتطرفة وبداية ظهور التصدعات داخل المجتمع الأكراني

يمكن توصيف أحداث المايدن بالثورة، ولكنها ثورة أدت إلى ظهور الفكر اليميني المتطرف المعادي للثقافة الروسية والمسكون بهاجس الرهاب الروسي. إن احداث المايدن كشفت صراعا بين الإرادات، الإرادة الغربية التي أصرت على إخراج أكرانيا من الفلك الروسي ودمجها في المنظومة الأوروبية تمهيدا لإلحاقها بحلف الناتو، ولقد نجحت الإرادة الغربية في تحقيق ذلك بدعمها للانقلاب المسلح ومساندة التيارات القومية واليمينية المتطرفة. لقد دفع الغرب اكرانيا إلى الانتحار والتشظي بإذكائهم للحركات القومية الداعية إلى اقصاء الأقليات الغير أكرانية الناطقة بالروسية، حيث اتخذ البرلمان مباشرة بعد 21 شباط 2014 مجموعة من القوانين – وكأنها حاضرة مسبقا مخبأة في الرفوف – أهمها إلغاء قانون اللغات الذي سمح باستخدام الروسية كلغة إقليمية وحظر بث القنوات الروسية في أراضي أكرانيا.

إن ثورة المايدن هي ثورة اليمينيين المتطرفين بمعية القوميين الأوكرانيين الذين يسعون إلى تصفية المجتمع اثنيا وثقافيا، والتيارات القومية لطالما عانت منها أوروبا فهي المتسبب الأول في اندلاع أبشع حربين عرفتهما البشرية، الحربية العالمية الأولى والثانية. الكرملين يسمي هؤلاء بالنازيين الجدد، توصيف يرفضه الغرب ويعتبره محض بروباغندا روسية ومعلومات مضللة لتبرير الحرب ضد أكرانيا. إن النازية الجديدة تشتمل على مجموعة من الأفكار المتطرفة، تدعو إلى اقصاء الآخر المختلف وتطهير المجتمع من الأقليات، وإذا كان الغرب يتحفظ عن هذا المصطلح ويراه غير واقعي فسنستبدله بمصطلح القومية المتطرفة *Ultranationalisme*. إن الأفكار القومية المتطرفة تجد ملاذا في جميع الدول والمجتمعات ولا يمكن للغرب انكار حقيقة أن أكرانيا خاصة الجهة الغربية منها هي بؤرة القومية الأكرانية، كما أن روسيا فيها التيارات القومية المتطرفة، ولكن المصيبة تكمن في صعود هؤلاء إلى

السلطة فستكون كارثة سياسية واجتماعية. تمكن القوميون الاكران من التسلل لمراكز الدولة خلال أحداث المايدن، حيث تم ضم الكثير منهم إلى قوات وزارة الداخلية وإشراكهم في المحافظة على الأمن بشوارع كييف ومدن أخرى. ثم نظموا صفوفهم داخل حركة سياسية سميت بحركة آزوف نسبة لبحر آزوف الواقع في أقصى جنوب شرق أكرانيا، كما نشطوا أول مرة على ضفاف بحر آزوف وبالتحديد في مدينة ماريوبول. أندري بليتسكي مؤسس حركة آزوف أكد أن الأمة الأكرانية تقوم على أساس اثني، ومصلحة الامة تفوق مصلحة الفرد، وأفراد هذه الامة يمثلون النخبة هم مواطنون من الدرجة الأولى أما البقية فهم مواطنون من الدرجة الثانية.[91] الشعار الذي اختارته حركة آزوف متكون من حرفي N و I وهو في الحقيقة مقتبس من الوحدة الثانية SS في الجيش النازي الألماني.

شعار الوحدة الثانية SS في الجيش النازي شعار الحزب القومي الأكراني (سفوبودا) شعار حركة آزوف

[91] Opération Z, Jacques Baud,

كما شرح بليتسكي أسس القومية العرقية الاكرانية بالقول: إذا كانت الروحانية والثقافة واللغة الأوكرانية فريدة من نوعها، فذلك ببساطة لأن طبيعتنا العرقية فريدة من نوعها. إذا كانت أوكرانيا جنة أرضية، فهذا فقط لأن عرقنا جعلها جنة. لذلك يجب أن تبدأ معاملة جسمنا القومي بالتطهير العرقي للأمة. وبعد ذلك ستولد الروح الوطنية السليمة من جديد في جسد عرقي سليم ومعه الثقافة واللغة وكل شيء آخر. بالإضافة إلى مسألة النقاء، يجب أن ننتبه أيضًا إلى مسألة ملء العرق. الأوكرانيون جزء من العرق الأبيض الأوروبي. إنهم يشكلون سلالة الخالق لحضارة عظيمة، من أسمى الإنجازات البشرية. تتمثل المهمة التاريخية لأمتنا في هذا القرن الحاسم في قيادة وتوجيه الأمم البيضاء في العالم بأسره في الحملة الصليبية الأخيرة لوجودها. (...)المهمة التاريخية لأمتنا في هذه اللحظة الحرجة هي قيادة الأجناس البيضاء في العالم في حرب صليبية أخيرة من أجل البقاء.

الحزب القومي الاكراني سفوبودا تأسس سنة 1991 في مدينة لفيف الغربية، وهو حزب معروف بأفكاره العنصرية واليمينية المتطرفة، ناهيك أن سكان منطقة لوغانسك ذات الأغلبية الناطقة بالروسية، ناشدوا الرئيس يانوكوفيتش في 11 أيار 2011 بإغلاق مراكز هذا الحزب نظرا لعدائه لكل ما هو روسي. كما لعب هذا الحزب دورا حاسما في خلع الرئيس يانوكوفيتش، وقد نشرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية أن أعضاء حزب سفوبودا وزعوا ليلة تجمع المتظاهرين في ميدان الاستقلال بكييف نسخ من كتاب كفاحي لهتلر وبروتوكولات حكماء صهيون،[92] وقد وجه لهذا الحزب خلال التسعينات اتهامات على انه يتبنى الفكر النازي الجديد. كان الغرب على علم بتواجد هذه الحركات القومية اليمينية ولكنه تغاضى عنها ووفر لها غطاء سياسيا واقتصاديا، حماها لأنها معادية لروسيا ولثقافتها وهنا يظهر كذب ونفاق الغرب فيما يتعلق بحقوق الانسان والحريات والديمقراطية، لنكتشف أنها شعارات جوفاء يوظفها لخدمة مصالحه الخاصة وضرب الخصوم.

عشية الانقلاب الذي أطاح بيانوكوفيتش، الجهة الشرقية الموالية لروسيا بدأت تتحرك وتحتج معلنة رفضها لما يحصل في البلاد، بعد يومين فقط من اصدار البرلمان الأكراني القوانين المعادية ضد الناطقين بالروسية، اندلعت احتجاجات ومظاهرات حاشدة في جزيرة القرم. يوم 27 شباط 2014 سيطرت مجموعة أطلق عليها اسم "لجان الدفاع عن الناطقين باللغة الروسية في القرم " على مقر البرلمان في سيمفيروبول، ولم يمنعوا النواب من عقد اجتماع نتج عنه تعيين رئيس للحكومة وهو عضو بحزب الوحدة الروسية موال لروسيا الاتحادية، وأعلنوا اجراء استفتاء محلي بشأن توسيع صلاحيات رئيس الجمهورية ذات الحكم الذاتي. يوم 28 شباط سيطرت لجان الدفاع في القرم على مطارين في سيفاستوبول وسيمفيروبول، واكد رئيس وزراء القرم سيرغي أكسيونوف أن وضع المؤسسات والمقرات الأمنية تحت السيطرة، ولم ينتهي الأمر عند ذلك بل أعلن برلمان القرم تنظيم استفتاء حول مصير شبه الجزيرة يوم 16 لآذار 2014.[93] كل هذه الأحداث تبين أن سكان القرم رغبوا

[92] Ukraine: le parti Svoboda est fasciste, sur humanite.fr, 20 février 2014.

[93] روسيا الاوراسية، ص 289-290.

في الانضمام إلى روسيا الإتحادية بطواعية وليس بالقوة، فالقرم ليست محتلة كما يروج على ذلك الإعلام الغربي والأكراني اليوم.

وفي خطوة حاسمة دعا سيرغي اكسيونوف روسيا المساهمة في ضمان أمن واستقرار شبه الجزيرة، لم يتردد بوتن في ذلك وأرسل قوات روسية وذلك بعد موافقة مجلس الاتحاد الروسي الدوما. كان دور هذه القوات يتمثل في حماية سكان القرم الناطقين بالروسية، فلم يجدوا مقاومة واستقبلوا بحفاوة، مما يدل أن القرم هي أصلا روسية وليست أكرانية. يوم 3 آذار 2014 أدانت الدول الغربية ما اعتبرته اعتداء على وحدة الأراضي الاكرانية وطالبت موسكو بسحب قواتها، رواية مجافية تماما للصواب ومحض أغاليط، لأن روسيا لم تعتدي على الأراضي الأكرانية بل إن معظم سكان القرم هم من أرادوا الانضمام إلى الاتحاد الروسي ضمن استفتاء. وفي اليوم الموالي 4 آذار، أكد وزير الخارجية الروسي لافروف للمفوضة الأوروبية العليا للسياسة الخارجية والأمنية كاترين آشتون ضرورة تنفيذ اتفاقية تسوية الأزمة الأكرانية الموقعة في 21 شباط 2014 التي تتضمن القيام بإصلاحات دستورية وتشكيل حكومة ائتلافية، وقال :

« إن التغلب على كل الأزمات الداخلية يجب أن يتم عبر الحوار بين كل القوى السياسية.[94] »

تصريح في غاية من الأهمية لأنه يكشف أن السياسية الروسية منذ الساعات الأولى من اندلاع الازمة الاكرانية كانت تجنح للحوار وتفعيل الديبلوماسية لا قرع طبول الحرب كما اشاعت وسائل الإعلام ومراكز صناع القرار الغربية. علاوة على ذلك، اتهم لافروف الحكومة الجديدة التي جاءت ضمن انقلاب مسلح، على أنها تنتهك حقوق الإنسان إثر اصدار القوانين المعادية للناطقين بالروسية وتصريحات بعض القادة القوميين المتطرفين بتطهير البلاد من الأقليات الغير أكرانية. ولكن أين الغرب من كل ذلك، ألم يصدع رؤوسنا ليلا ونهارا عن ضرورة الحفاظ على حقوق الإنسان والحريات والتي يعتبرها حقا مقدسا بالنسبة لكل فرد، لقد غض الطرف عن الفظاعات التي اقترفها اليمين الأكراني المتطرف من تعذيب وقتل، فوسائل الإعلام الغربية لم تسلط الضوء عن تلك الانتهاكات طيلة ثماني سنوات من

[94] ص292.

2014 إلى 2022، وعندما حاولت موسكو تنبيه الغرب بما يحدث في الداخل الأكراني، كان رده حاضرا جاهزا عودنا عليه كل مرة "*إنها محض بروباغندا روسية* ". في تشرين الأول 2021، صحيفة جروزليم بوست Jérusalem post نشرت دراسة أقيمت في أيلول من نفس السنة بمعهد الدراسات الأوروبية الروسية الأوراسية في جامعة جورج واشنطن، مفادها أن كندا والولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا أقدمت على تدريب مجموعات يمينية متطرفة في أكاديمية هيتمان بترو العسكرية.[95] لقد دعم الغرب القوميين والمتطرفين الأوكرانيين ووظفوهم كورقة لضرب خصر روسيا. إن شعارات حقوق الإنسان والحريات لا قيمة لها أمام العدو اللدود روسيا، يجب التخلي عن هذه المبادئ من أجل احتواء روسيا وتقليم أظافيرها، وبالتالي لا ضير من دعم الفكر المتطرف المعادي للحرية وحتى الحياة، هنا نلاحظ كيف تدحرج الغرب إلى أسفل القاع. لم يكتفي الغرب بذلك، بل من اجل تبييض نظام كييف اليميني المتطرف والموالي للغرب، زعمت وسائل إعلام غربية وفي مقدمتها قناة فرانس 5 أن فلاديمير بوتن هو من ساهم في تأسيس هذه الحركات القومية اليمينية ثم انقلبت عليه، كلام يدل عن جهل مطبق بالتاريخ، محاولة يائسة للتقليل من خطورة هذه التيارات وتقديمها على أنها ديمقراطية.

إن انضمام القرم لروسيا الاتحادية يبقى شرعيا، لأن روسيا لم تؤثر على إرادة سكانها بل احترمت ارادتهم بالانضمام إلى الاتحاد الروسي ضمن استفتاء نزيه وشفاف، لقد تم الانضمام بطريقة هادئة لا يمكن مقارنتها بما حدث مع إقليم ابخازيا سنة 2008.[96] في الظاهر يبدو انضمام القرم جاء لتلبية رغبة الناطقين بالروسية الرافضين لأحداث المايدن الدموية، إلا أن هذا الانضمام يخفي مصالح روسيا الجيوستراتيجية، حيث أدرك بوتن أن الأزمة الأكرانية تشكل خطرا قاتلا على الامن القومي الروسي، فقدان أكرانيا لصالح الغرب سيجلب مستقبلا قوات حلف شمال الأطلسي على الحدود الجنوبية الشرقية لروسيا، وضم القرم سيحفظ لها قواعدها العسكرية البحرية المطلة على البحر الأسود وبالتالي ستضمن وصول سفنها إلى

[95] Opération Z

[96] لم يعترف الغرب باستقلال شبه جزيرة القرم عن اكرانيا بالرغم من أنه شرعي، ولكن ألم يقبل الغرب باستقلال كوسوفو عن صربيا رغما عن أنفها ؟ فلماذا لم يقبل باستقلال القرم مع أنه شرعي ولم يحصل بالقوة او بالترهيب ؟ الإجابة بسيطة كل ما يفعله الغرب يضفي عليه الشرعية والعدالة، فهو يريد فرض ارادته على الآخرين وما عليهم سوى الانصياع لإرادتهم، علامة من علامات الغطرسة والنفاق والكذب والخداع.

البحر المتوسط. إن حدث انضمام القرم لروسيا الاتحادية يسلط الضوء على إرادة موسكو القوية في عدم خسارة أكرانيا لصالح الغرب، فهذا البلد يجب ان يبقى محايدا من منظور الامن القومي الروسي ومنطقة عازلة بين الشرق والغرب، ولئن قبلت موسكو على مضض في السنوات الماضية انضمام دول البلطيق ودول غرب البحر الأسود ورمانيا وبلغاريا إلى حلف الناتو فإنها لن تقبل بابتلاع أكرانيا وبلاروسيا ولو استلزم ذلك خوض الحرب. ما يمكن استخلاصه هو أن الغرب المتسبب الأول في ظهور تصدعات حادة وخطيرة داخل المجتمع الأكراني بين موال للاتحاد الروسي وموالي للاتحاد الأوروبي، تصدعات ستؤدي إلى اندلاع حرب أهلية في إقليم الدونباس.

الفصل التاسع

حرب الدونباس ومحاولات روسيا الديبلوماسية من أجل حل الأزمة

في السادس من نيسان 2014، استولى مقاتلون موالون لروسيا على مقر الإدارة الإقليمية لدونيتسك ومقر الاستخبارات في لوغانسك شرق أكرانيا، في بداية تمرد على حكومة كييف المتطرفة. تمرد لم يأتي من فراغ ولكن سببه الرئيسي يكمن في تلك القوانين التي شرعها البرلمان الأكراني – مباشرة بعد انقلاب المايدن – ذات الصبغة العنصرية، حيث أقدم البرلمان على إلغاء قانون كيفالوف كولسنيشنكو الصادر سنة 2012، الذي جعل من اللغة الروسية كلغة رسمية داخل إقليم الدونباس وعلى قدم المساواة مع اللغة الأكرانية. هؤلاء المقاتلون هم مؤيدون للتقارب مع الاتحاد الروسي ومعادون للتقارب مع الاتحاد الأوروبي، حيث رأوا أحداث المايدن أشبه بالكارثة نظرا وصعود القوميين المتطرفين الذين قرروا التضييق على الأقليات الروسية المتواجدة بكثرة في إقليم الدونباس، وأرادوا تبعا لذلك إعادة سيناريو انفصال القرم عن كييف والانضمام إلى روسيا. مباشرة بعد اصدار تلك القوانين حذرت أستريد ثورز Astrid Thors المفوض السامي لمنظمة الأمن والتعاون في أوروبا المعني بالأقليات القومية، الحكومة الأكرانية الجديدة من القرارات السريعة التي قد تؤدي إلى تصعيد الموقف تجاه قضية اللغات، إن هذا القرار اللامسؤول والعنصري اشعل فتيل احتجاجات عارمة في الشرق وجنوب البلاد للمطالبة بعودة تلك الحقوق التي تحفظ كرامة وسلامة الأقليات، ليس الروسية فحسب إنما كذلك الهنغارية والرومانية. إن إقصاء اللغة الروسية كلغة رسمية في الدونباس منذ سنة 2014 وانتهاج سياسة التطهير الاثني والعرقي من طرف القوميين الأوكرانيين – وقد ذكرنا ما صرح به مؤسس حركة آزوف أندري بليتسكي – كان السبب الرئيسي في تصدع المجتمع الاكراني أدى إلى تمرد الناطقين بالروسية في الدونباس، وعندما استعملت حكومة كييف القوة لإخماد هذا التمرد سرعان ما اندلعت حرب أهلية دموية أودت بحياة ما لا يقل عن 10 آلاف شخص.

خريطة تكشف المناطق التي احتجت على قانون اللغات سنة 2014. نلاحظ أن المنطقة الحمراء " الدونباس " هي أكثر منطقة يتواجد فيها الموالون للاتحاد الروسي.

إقليم دونيتسك يقع جنوب شرق أكرانيا، تحده روسيا من الشرق وبحر آزوف من الجنوب. تبلغ مساحته 26 ألف كيلومتر مربع مقسم إلى 18 منطقة تضم 52 مدينة و131 بلدة. يبلغ عدد السكان حوالي 4.3 ملايين نسمة. اللغة الرئيسية في الإقليم الروسية وينتشر استخدام الأوكرانية في بلدات ومدن أخرى. يعتبر إقليم دونيتك منطقة صناعية كبيرة، إذ يشتهر بكثرة مناجم الفحم الحجري ومعامل الحديد والصلب. [97]

أما إقليم لوغانسك يقع في أقصى شرق أوكرانيا، تحده روسيا من الشرق والشمال والجنوب، تبلغ مساحته 26.6 كيلومتر مربع، مقسم إلى 18 منطقة إدارية ويضم 37 مدينة و109 بلدات. اللغة الرئيسية المستخدمة هي الروسية وينتشر استخدام الأكرانية في مدن أخرى، وهي أيضا منطقة صناعية هامة فيها الكثير من نقاط عبور البضائع الروسية.

[97] روسيا الأوراسية، ص 305.

إن دعم الدول الغربية للقوميين في كييف ليس حبا فيهم أو إيمانا بقضـية الديمقراطية والليبرالية وحقوق الإنسـان، بل لأن هؤلاء يشـتركون معهم في كرههم للروس، وبالتالي تغاضـوا عن القرارات والقوانين المتطرفة ضـد الناطقين بالروسـية، أما واشـنطن فقد أرادت اسـتفزاز موسـكو من أجل توريطها في الحرب ومن ثم اضـعافها وتفكيكها كما سـنوضـح لاحقا. في البداية لم تدعم موسـكو الانفصـاليين وسـعت سـعيا حثيثا لحل الأزمة بالطرق الديبلوماسـية معتبرة أن الصـدام في الدونباس قضـية داخلية لأكرانيا يجب للحكومة حلها سلميا، ويتضـح ذلك في خطاب الرئيس بوتن من سـان بطرسـبرغ عشـية انتخابات 24 أيار 2014 التي انتهت بفوز رئيس جديد لأكرانيا بترو بروشـينكو، خطاب سـيطرت عليه اللغة الهادئة، حيث أعلن أنه لا يهمه من هو الرئيس القادم ولكن المهم تسـوية مشـكلة الإقليمين دونيتسك ولوغانسك. حتى بعد مجيء الرئيس الأكراني الجديد خيرت كييف الحل العسكري مع إقليم الدونباس، تعالت أصـوات المدافع على صـوت الحوار والتفاوض، خاصـة بعد أن تعاظمت التيارات القومية محكمة قبضتها على دواليب الدولة، حيث نشأ بالتوازي مع الجيش كتائب قومية يمينية متطرفة أبرزها كتيبة آزوف، وقد اضـطرت حكومة كييف لتكوين هذه الكتائب لأن عناصر كثيرة من الجيش الأكراني النظامي رفضوا الحرب في الدونباس وقتل الناطقين بالروسـية، فهؤلاء أكران مهما اختلف معهم، حرب رفض معظم قيادات الجيش الانخراط فيها.

لم تعترف روسيا باستقلال إقليمي دونيتسك ولوغانسك على عكس القرم، وتلك إشارة قوية تكشف أن بوتن أراد حل الأزمة بالطرق الديبلوماسية منذ البداية. استمرت الحرب من نيسـان إلى أواخر شـهر أغسـطس 2014، وقد أبدى الانفصـاليون الموالون لروسـيا مقاومة كبيرة في القتال دفعت الكتائب الاكرانية إلى التراجع خلال مناسـبات عديدة، كما نجحوا في السـيطرة على كثير من المدن. في نظر الانفصـاليين فإن الحرب ضـد حكومة كييف هي مسألة حياة أو موت، إنها حرب من اجل الحفاظ على حقوقهم وهويتهم التي طمسها البرلمان الأكراني عقب أحداث المايدن. معظم وسـائل الإعلام الغربية في القترة الممتدة بين 2014 و2021 لم تسلط الضوء على الاسباب الحقيقة لحرب الدونباس، وذلك بطبيعة الحال متعمد، لأنهم لو ناقشوا تلك الأسباب سيظهر للعالم بأسره كذبهم وشخصيتهم الفصامية، لأنه أولا :

كيف يمكن تفسير رفع شعار حقوق الإنسان والحريات في حين يتم التغاضي عن حقوق الأقليات الناطقة بالروسية في شرق أكرانيا ؟ ثانيا : معالجة السبب الحقيقي لحرب الدونباس سيعطي مصداقية للرواية الروسية و سيبرر دعمها للانفصاليين، في حين أنه يجب فعل كل شيء ولو كان منافيا للأخلاق وللحياة حتى نعطي صورة مشوهة عن الجانب الروسي وإظهار روسيا كونها الشر بعينه. ثالثا : لقد تجنبت وسائل الإعلام الغربية معالجة الحرب بموضوعية لكي لا تطعن في مصداقية النظام الأكراني الجديد واظهاره على أنه ديمقراطي يدافع عن الحقوق والحريات، وأنه هو الضحية، والانفصاليون الموالون لروسيا هم النازيون الجدد الحقيقيون، المجندين من روسيا بهدف الإطاحة بهذا النظام الموالي للغرب.

في أيلول 2014 بادر الرئيس فلاديمير بوتن إلى اقتراح خطة سلام تحقن دماء الجانبين، عرفت هذه الاتفاقية "بمينسك 1" (مينسك عاصمة بلاروسيا). خلال اجتماع دام سبع ساعات حضر فيه مندوبون عن السلطات الأكرانية والانفصاليين الأوكرانيين، وممثلة منظمة التعاون في أوروبا وممثلون عن جمهوريتي دونيتسك ولوغانسك الشعبيتين يوم 5 أيلول 2014، تم التوصل إلى اتفاق ينص على وقف إطلاق النار، إضافة إلى توقيع مذكرة تتضمن تسع نقاط : وقف اطلاق النار وسحب المدفعية الثقيلة في المناطق السكنية ومنع المقاتلات الجوية والطائرات بدون طيار من التحليق فوق المنطقة المنزوعة السلاح التي ستكون تحت إشراف منظمة التعاون والأمن في أوروبا.[98] ومن جانبه عرض الرئيس الأكراني بترو بروشينكو على الانفصاليين الحصول على " وضع خاص " لمدة ثلاث سنوات ومنحهم حكما ذاتيا واجراء انتخابات محلية في السابع من كانون الأول 2014 وإصدار عفو مشروط عن المسلحين، واقر البرلمان الأكراني يوم 16 أيلول 2014 قوانين تتيح تطبيق هذه القوانين. [99] إلا أن الانفصاليين كانوا يطمحون للاعتراف باستقلالهم عن كييف، واعطائهم ما يسمى وضعا خاصا لن يضفي الشرعية على الاستفتاء الذي اجروه في نيسان وأيار 2014، وبالتالي اتخذت اتفاقية مينسك 1 شكل الهدنة وليس اتفاقية سلام

[98] ص 308.
[99] ص 308-309.

حقيقية، حيث كانت هدنة هشـــة وحذرة، لم تعمر طويلا ليســتعر القتال من جديد ووصــلت حرب الدونباس إلى طريق مسدود.

بالرغم من فشل اتفاقية "مينسك 1 " لم تهدأ محاولات موسكو الديبلوماسية من أجل وضــع حد للحرب، ليلتحق بمســار التفاوض الجانب الأوروبي ممثلا بالمســتشــارة الألمانية انجلا مركل والرئيس الفرنســي فرنســوا هولاند. في 6 شــباط 2015 تحول كل من مركل وهولاند إلى موسكو لتوقيع اتفاقية جديدة عرفت" بمينسك 2 " اتفاقية جاءت مكملة للأولى. لقد أفرزت حرب الدونباس واقعا خطيرا بالنســبة لروســيا وأوروبا، وتدخل ألمانيا وفرنســا يمثل الفرضـــة الأخيرة لنزع فتيل الازمة. الدول الأوروبية ربما كانت أكثر حرصـــا لحل الأزمة بالطرق السلمية، فالحرب على أبواب قارتهم وهم من سيدفعون الثمن لو استمرت، وبالتالي عودة الاســتقرار لأكرانيا يصــب في المصــلحة الجيواســتراتيجية للأوروبيين. أما واشـــنطن فقد كان لديها رأي آخر، إنها بعيدة عن الصـــراع ولن تتأثر به كما هو حال الأوروبيين، ومن ثم أدركت مبكرا أن الأزمة الأكرانية فرصــة من ذهب لإضــعاف روسيا وربما تفكيكها لأنها خلال عقد ونيف اســتعادت عافيتها الاقتصــادية وقوتها العســكرية، ولم تخفي واشنطن قلقها العميق من التقارب بين روسيا وأوروبا، خوفها من فقدان تأثيرها على القارة العجوز لصالح موسكو، ومن جهة ثانية هناك الصين القوة الاقتصادية الضاربة التي تشـــكل تهديدا حقيقا قد يطيح بقيادة الولايات المتحدة للعالم ويجردها من دورها كشـــرطي العالم. في نظر الساسة الأمريكيين روسيا الاتحادية تشكل خطرا استرتيجيا على الولايات المتحدة لو نجحت في تحقيق تقارب إما مع أوروبا أو مع الصين، تقارب قد يفضي إلى إقامة كتلة أوراسية قوية تتفوق عليها اقتصــاديا وعسكريا وذلك ما لن تسمح به واشنطن على المدى القصير. إن الفلسفة الجيوسياسية الأمريكية تقوم على منع تحقيق تقارب بين أوروبا وروسيا والصين على رقعة الشطرنج الاوراسية، في أيلول 1982 نبهت وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA من خطورة التقارب بين الاتحاد الســوفياتي وأوروبا بغاية الاســتفادة من الموارد الطاقية. صحيح أن روسيا ليس لديها اقتصاد قوي مثل الصين أو أوروبا ولكن لديها موارد طبيعية هائلة، في صورة انحيازها إلى أحد الطرفين فإنهما سيشكلان تكتل اقتصادي لا يقهر، وهو ما دفع الرئيس رونالد ريغن إلى ارســـال وحدة أمريكية خاصـــة لتخريب

الأنبوب السوفياتي gazduc bratsovo الذي يزود أوروبا بالغاز.[100] إن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر أوروبا مزرعتها التي تفعل فيها ما تشاء وخط دفاعها الأول ضد روسيا، وبالتالي ستوجه كل طاقاتها لكي لا تخرج من فلكها، فبعد الحرب العالمية الثانية أنفقت الإدارة الأمريكية مليارات الدولارات من أجل إعادة إعمار الدول الأوروبية ضمن مخطط عرف بمارشال، ومنذ ذلك الوقت أصبحت واشنطن تنظر إلى أوروبا على أنها ملكا خاصا لها. وبناء على ما سبق، نفهم لماذا واشنطن لم تكن متحمسة لإيجاد حلول سلمية للازمة الاكرانية وذلك لسببين:

أولا : توريط روسيا في حرب ستستنزف مواردها على المدى القريب والمتوسط وبالتالي اضعافها بعد أن تمكنت من العودة إلى الساحة الدولية، أي بتعبير آخر البحث عن تحجيم الاتحاد الروسي من خلال الأزمة الأكرانية.

ثانيا : دق اسفين بين الاتحاد الروسي والاتحاد الأوروبي حتى لا يتحقق تقارب محتمل بينهما. إن الساسة الروس وفي مقدمتهم فلاديمير بوتن كانوا يعلمون منذ 2015 أن واشنطن لا ترغب في حل سلمي للازمة مفضلة الحل العسكري، وهو ما أفصح عنه اليكسي بوشكوف رئيس لجنة الشؤون الدولية في مجلس الدوما الروسي :

« إن احتمال نشوب حرب في جنوب شرق أكرانيا لا يزال قائما، إذ أن واشنطن وكييف تريدان حل الأزمة الأكرانية بالطرق العسكرية.[101] »

لم تنجح اتفاقية مينسك 2 في وقف نهائي لإطلاق النار عوامل عديدة أهمها : مساحة الغموض التي تكتنف الاتفاق، بنود الاتفاقية يمكن تأويلها بطرق شتى، كما تفتقر لآليات واضحة للتنفيذ وكان مصيرها الإخفاق مثل اتفاقية ميسنك 1. إضافة إلى ذلك فإن حكومة كييف قبلت بالتفاوض عن مضض، فقد خسرت مساحات شاسعة من إقليم دونيتسك ولوغانسك، وعدد كبير من الجيش الأكراني وقعوا أسرى لدى الانفصاليين، الأمر الذي دفعها إلى وقف إطلاق النار بشروط صعبة.[102] إن حكومة كييف لم ترغب هي أيضا في

[100] Ukraine entre guerre et paix
[101] روسيا الأوراسية، ص 310.
[102] ص315.

إيجاد حل سلمي للأزمة وراهنت على الانضمام إما إلى الاتحاد الأوروبي وإما إلى حلف شمال الأطلسي، لذلك شعرت بخيبة أمل من طرف الأوروبيين، فاضطرت للتفاوض وهي منهكة اقتصاديا وعسكريا. بالرغم من اخفاق اتفاقية مينسك 2 إلا أنها سمحت لكييف بالتقاط أنفاسها، الحصول على هدنة من اجل إعادة التسلح وخوض غمار حرب جديدة ضد الانفصاليين، وهنا نذكر ما صرحت به المستشارة الألمانية اجلا مركل لصحيفة دير شبيغل في تشرين الثاني 2022 :

« كييف وقعت اتفاقية مينسك 2 ليس من أجل تطبيق بنودها على ارض الواقع ولكن لربح الوقت وإعادة بناء جيشها المنهك والمستنزف. » [103]

تصريح أكده فرنسوا هولاند في كانون الأول 2022. بناء على ما تقدم، فإن الدول الغربية لم تكن تسعى لحل الازمة سلميا مع روسيا، فمارست المماطلة والتسويف والنفاق حتى تربح هامشا من الوقت وتحول اكرانيا إلى بلد يحارب روسيا بالوكالة عن واشنطن وحلفاءها.

[103] Ukraine entre guerre et paix

الفصل العاشر

سياسة كييف ما بعد اتفاقية مينسك

يبدو جليا من خلال الاحداث التي ذكرناها أن الأزمة الأكرانية هي في الواقع صراع جيوسياسي واستراتيجي بين الشرق والغرب. الإرادة الغربية تحاول العبث بالمجال الحيوي الروسي (اكرانيا وبيلاروسيا) بدمجهما في الاتحاد الأوروبي ثم حلف شمال الأطلسي، رافعين شعارات ما يسمى الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات، واتضح أنها محض أكاذيب وافتراءات، لأنهم لو كانوا مهتمين بهذه القيم لأدانوا القانون العنصري الذي أصدره البرلمان الاكراني الذي يعتبر الشرارة الأولى للازمة إضافة للانتهاكات الممارسة ضد الناطقين بالروسية. واضح أن الدول الغربية تفعل ملف الديمقراطية وحقوق الإنسان عندما ترى مصالحها مهددة فقط أو للتدخل في شؤون الدول الأخرى. أما الإرادة الشرقية الممثلة بروسيا الاتحادية فإنها كما أشرنا آنفا لن تقبل بخسارة أكرانيا، فهذا البلد حيوي في منظور الأمن القومي الروسي، والجدير بالذكر فروسيا منذ بداية الأزمة، لم ترغب في غزو أكرانيا أو ضمها إنما أرادته أن يبقى بلدا محايدا، ارادت منه تطبيق النموذج الفنلندي، غير منحاز لا للشرق ولا للغرب نظرا لموقع اكرانيا الحساس والخطير. كانت الغاية الأساسية من ضم القرم هو إحداث نوع من الصدمة لنظام كييف الجديد، ولكن اتضح مع الوقت أن هذا النظام لم يرتدع وسيمضي قدما في التقارب مع الغرب على حساب المصالح الروسية، لذلك قررت روسيا دعم الانفصاليين في الشرق، دعم أنهك كييف اقتصاديا وعسكريا، محاولة لإضعاف موقف النظام الأكراني، والأهم من ذلك بقاء أكرانيا خارج الاتحاد الأوروبي وحلف الناتو لأن بلدا يواجه تمردا مسلحا وانهيارا اقتصاديا لا يمكنه بأي حال من الأحوال الحصول على عضوية الاتحاد أو حلف شمال الأطلسي.

لا ننكر أن اتفاقية مينسك 1 و2 كانتا هشة ولكن يجب الإشارة إلى سياسة كييف القائمة على التطهير العرقي للمجتمع الأكراني، لقد كان النظام الجديد متأثرا إلى حد كبير بالتيارات القومية اليمينية المتطرفة، وعليه فإن تطبيق اتفاقية مينسك التي تنص على منح حكم ذاتي لإقليم الدونباس يعد مستحيلا، لأن فكرة الحفاظ على خصوصية الأقليات من خلال منحهم حكما ذاتيا لا يدعمها القوميون خاصة تيار آزوف المتطرف، فالقوميون يريدون من أكرانيا أن تكون خالصة للأوكرانيين الناطقين بالأكرانية فحسب. في نيسان 2019 أصدر الرادا (البرلمان الأكراني) قانونا يحدد اللغة الأكرانية كلغة رسمية، وينص على أن مواقع الويب يجب أن تستخدم اللغة الأكرانية وأن مواد الحملات السياسية عبر الانترنت يجي هي أيضا أن تكون بالأكرانية. غير أن هذه الأحكام لا تنطبق على اللغات الأجنبية الأخرى كالإنجليزية والفرنسية والألمانية لغات الاتحاد الأوروبي بصفة عامة، فالروس لا يعتبرون سكانا أصليين للبلاد.[104]

في 2018 زعمت وسائل الإعلام الأوروبية وخاصة الفرنسية أن الكتائب الموازية للجيش الأكراني ذو النزعة اليمينية المتطرفة قد تم استبعادها، ولكن وسائل الإعلام الأمريكية كشفت غير ذلك حيث جاء في تصريح لقناة NBC News الأمريكية :

« إن النازيين الجدد عددهم يتزايد يوما بعد يوم في صفوف الكتائب الأكرانية، وهم متمرسون في خوص أشرس واصعب المعارك ضد الانفصاليين المدعومين من موسكو في الشرق بعد غزو بوتن لشبه جزيرة القرم سنة 2014. ومن بين هذه الكتائب تبرز كتيبة آزوف التي أسسها أحد المتعصبين للعرق الأبيض والذي يدعي أن هدف أكرانيا هو تخليص البلاد من اليهود والأعراق الأخرى الأقل شأنا ».[105]

لقد كان القوميون يمارسون التعذيب تحت صمت حكومة كييف وعدم اكتراث وسائل الإعلام الغربية بهذه الانتهاكات الخطيرة لحقوق الإنسان، لأنها تصر على تجنيب نظام كييف من كل الاتهامات الموجهة ضده بسبب ولائه للدول الغربية، بيد أن وسائل الإعلام الهولندية أماطت اللثام عن فظاعات سياسة كييف:

[104] Opération Z, Jacques Baud.
[105] Ibid.

« تسببت الحرب المستمرة ضد الانفصاليين المدعومين من موسكو في الشرق في حدوث انتهاكات أساسية لحقوق الإنسان تحت ستار الإجراءات الأمنية » .[106]

مع مرور الوقت أدركت حكومة كييف أن موازين القوى بينها وبين روسيا غير متكافئة ويستحيل على جيشها وكتائبها تحقيق انتصار خاطف ونهائي على الانفصاليين المدعومين عسكريا من موسكو، وأن الحرب ستكون طويلة ومكلفة وستنهك النظام الاكراني وهذا ما أرادته موسكو بالفعل، فالنظام لم يتعظ من خسارته للقرم وسيمضي قدما في تحديه للإرادة الروسية، وعليه كان من السهل على موسكو توريط هذا النظام في حرب استنزاف مكلفة ومدمرة اقتصاديا في حالة عدم التزامه باتفاقية مينسك. لقد خرج ذلك التحدي إلى العلن على لسان الرئيس الجديد المنتخب في أيار 2019 وهو فلوديمير زيلينسكي الذي خلف باتروشينكو. سعى زيلينسكي منذ انتخابه للحصول على عضوية حلف الناتو أو الاتحاد الأوروبي في خطوة استباقية موجهة ضد مصالح روسيا الجيواستراتيجية، ولكن الغرب لم يمنحه تلك الفرصة لسبب بسيط، حلف الناتو لا يقبل عضوية دولة غير قادرة على فرض سيادتها على كل أراضيها أو تعيش حربا داخلية. إن اتفاقية مينسك تنص على منح حكم ذاتي للإقليم الدونباس، ولو تحقق ذلك فإن حكومة كييف لن تكون قادرة على اتخاذ القرارات بصفة فردية ويجب عليها تشريك حكومتي الإقليمين المنفصلين، مما سينجر عنه انهيار حلمها للانضمام إلى الناتو في المستقبل، ومن هنا نستشف الهدف الاستراتيجي من اتفاقية مينسك 1 و2، إنه غلق كلي للأبواب أمام كييف المؤدية إلى عضوية حلف شمال الأطلسي على المدى البعيد، ولكن بقي هذا النظام متمسكا بخلع العباءة الروسية واستبدالها بعباءة واشنطن وحلفاءها، وهو ما تسبب في تدمير هذا البلد اقتصاديا واجتماعيا.

إذن فإن الحصول على عضوية الناتو أو الاتحاد الأوروبي سيكون مستحيلا إذا تواصلت حرب الدونباس وتواصل معها دعم موسكو للانفصاليين عن بعد، وذلك ما أفصح عنه مستشار زيلينسكي أولكسي أريستوفيتش في 18 آذار 2019 :

[106] Ibid.

« سياستنا تتمحور حول الحصول على عضوية حلف الناتو ثم الدخول في الاتحاد الأوروبي، إلا أن التوترات مع روسيا في الشرق ستحول دون ذلك، فالناتو لن يخاطر بعضوية اكرانيا لأنه سيكون لزاما عليه تفعيل المادة الخامسة من ميثاقه.[107] إن الثمن الذي يجب دفعه من أجل الانضمام إلى الناتو هو خوض حرب ضد روسيا وإلحاق الهزيمة بها[108] » .

الملفت للنظر هو استشراف اريستوفيتش للحرب ضد روسيا مؤكدا أن حربا ستندلع إما سنة 2021 أو سنة 2022. إن هذا التصريحات تثبت أن الحرب الروسية الأكرانية كان مخططا لها من طرف نظام كييف المعادي لروسيا كذلك الإدارة الامريكية، لقد رغب هذا النظام في توريط مباشر لروسيا في الحرب وإلحاق هزيمة بقوتها العسكرية قد تؤدي إلى انهيارها تماما، فيزول الاتحاد الروسي من على الخريطة الجيوسياسية ويتم أخيرا قبول اكرانيا في الحلف. بناء على هذا القول يتضح أكثر مسوغات عدم التزام كييف بوقف لإطلاق النار، لأن النظام يرغب في استمرار الحرب، بل إنه كثف من هجماته على إقليم الدونباس منذ سنة 2020 ناهيك أن زيلينسكي أعلن انه سيسترجع شبه جزيرة القرم، أي أنه زاد الطين بلة واسكب الزيت على النار. في نظر أريستوفيتش فإن الحصول على عضوية حلف الشمال الأطلسي مشروطة بانهيار الاتحاد الروسي أو بحصول انقلاب على بوتن وحكومته، ومن هنا ندرك أن سياسة كييف بعد اتفاقية مينسك تتحكم فيها واشنطن التي تتمنى تفكك الاتحاد الروسي كما حصل مع الاتحاد السوفياتي وذلك هدفها النهائي، أما كييف هدفها الحصول على عضوية حلف الناتو، فالبلدين لهما نفس الهدف ولئن اختلفت طرق تحقيق ذلك.

إن توريطا مباشرا لروسيا في الحرب لن يتحقق إلا عبر تكثيف للضربات على إقليم الدونباس ومزيدا من ممارسة الانتهاكات ضد الناطقين بالروسية، أي بتعبير آخر استفزاز روسيا بصفة غير مباشرة لكي تدخل في الحرب لأنها لن تبقى مكتوفة الايدي وهي ترى الروس يقتلون، وهو ما حصل بالفعل، حيث أقدمت حكومة كييف بقيادة زيلينسكي على تكثيف هجماتها مما دفع موسكو بالاعتراف يوم 21 شباط 2022 بجمهوريتي دونيتسك ولوغانسك

[107] تنص على أنه إذا تعرض بلد عضو في الناتو لهجوم عسكري خارجي فإن كل الدول عليها الانخراط في الحرب حتى وإن لم تتعرض للهجوم.

[108] Ukraine entre guerre et paix

الشعبيتين، وإعلان بوتن يوم 24 شباط 2022 أن روسيا ستقوم بعملية عسكرية خاصة من أجل حماية الناطقين بالروسية من انتهاكات نظام كييف المعادي لروسيا.

وهنا يثور سؤال : كيف سمح زيلينسكي باستفزاز روسيا حتى تدخل الحرب وهو يعلم سلفا أنه يفتقر للقوة العسكرية والبشرية لمواجهة جيشها المصنف الثاني عالميا بعد الولايات المتحدة الأمريكية ؟ أليس ما أقدم عليه يعد عبثا وانتحارا ؟

ما أقدم عليه زيلينسكي هو حقا انتحار، ولكن لن يدرك ذلك إلا بعد مرور سنة من الحرب، لأنه كان يعتقد أنه سيهزم قطعا روسيا وذلك يعود إلى الدراسة الأمريكية الاستخباراتية العرجاء واحلامهم الطائشة.

الفصل الحادي عشر

سيناريو انهيار الاتحاد الروسي وتحول العملية العسكرية الخاصة إلى حرب بالوكالة

سبق وأكدنا أن الغرب – منذ بداية العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين على الأقل – دائما ما كان ينظر إلى روسيا على أنها بلد هش عسكريا واقتصاديا، إنها دب من ورق وليس أكثر. هذه النظرة الاستعلائية والمغرورة أدت إلى توريط الدول الغربية في حرب استنزاف غير مسبوقة وتدمير بلد بأسره. سنة 2019 قدمت مؤسسة راند RAND CORPORATION مؤسسة مهتمة بالبحث والتطوير، وهي بمثابة مختبر للأفكار Think Tank نشأت سنة 1948 لتقديم النصائح للجيش الأمريكي وتطوير الدراسات الاستراتيجية. قدمت رؤية لمستقبل الحرب الروسية الأكرانية وحيثياتها، حيث رسمت سيناريو انهيار الاتحاد الروسي وتفككه إلى دويلات مستقلة وذلك من خلال توظيف أكرانيا. ما على حكومة كييف سوى جر روسيا إلى الحرب ثم مباشرة يعلن الغرب سلسلة من العقوبات المجحفة ضد روسيا تنتهي بخنقها اقتصاديا فتنهار أو تؤلب الرأي العام ضد يوتن فتندلع احتجاجات عارمة تنهي نظامه، سيناريو عنوانه الأبرز هو إثارة اختلالات داخل النظام الروسي عبر العقوبات.

اهتم البنتاغون بهذه الدراسة التي قدمتها مؤسسة راند ورأتها فرصة من السماء قد تحقق أحلام إدارة واشنطن، رؤيتها أخيرا لتفكك الاتحاد الروسي في سياق معاودة التاريخ لنفسه، غير أن مؤسسة راند حذرت الإدارة الأمريكية من مغبة تطبيق هذا السيناريو على ارض الواقع، لأن الغرب ليست لديه كل تفاصيل الاقتصاد الروسي ولا يمكن التنبؤ بمدى مقاومة روسيا للعقوبات أو التغلب عليها. مع أن دراسة مؤسسة راند ليست سوى أضغاث أحلام إلا أنها تداركت الامر ونوهت إلى أنه يستحيل تحول الفانتازم[109] إلى حقائق واقعية.

[109] Phantasme يعني الأفكار الخيالية

لم يأخذ البنتاغون تحذيرات المؤسسة على محمل الجد مقررا المضي قدما في تطبيق السيناريو على أرض الواقع، حيث نجد تفاصيل هذه الدراسة في كتاب يضم 350 صفحة تحت عنوان " توسيع روسيا واختلال توازناتها " *Overextending and Unbalancing Russia*[110]

إن الغرور قد ينتهي بالمغتر إلى خسرانه، وهو ما سقطت فيه واشنطن، حيث اعتقدت أن الاقتصاد الروسي هش ولن يتحمل العقوبات، وذلك سيخلق اختلالات داخل النظام والبنية الهيكلية للاقتصاد الروسي تنتهي بسقوط بوتن أو تفكك الاتحاد الروسي أو انهزام روسيا في الحرب والقبول باتفاقية سلام بشروط أمريكية. إن الغرب يعاني من مرض جنون العظمة، معتبرا أن كل ما هو ليس غربي لن يصمد، ولكن أصيب بصدمة كبيرة عندما ارتدت العقوبات على اقتصاد دوله وأثبتت روسيا قدرة عجيبة لا نظير لها في الصمود رغم الخسائر ومواصلة الحرب. اللافت في هذا الكتاب أنه لم يذكر في أي صفحة من صفحاته حقوق الانسان والحريات والديمقراطية، إنه ركز فقط على كيفية ضرب روسيا باستعمال أكرانيا.[111] ما تحقق على أرض الواقع هو تدمير اكرانيا اقتصاديا اجتماعيا من خلال زجها في حرب تفوق قدرتها، لقد كانت بمثابة وقود للرهاب الغربي تجاه روسيا وغروره وكبريائه، والنتيجة كانت عكسية على الغرب وخاصة واشنطن، الذي انفضح واتضح أن شعاراته جوفاء ومحض أكاذيب، بل همه هو احكام السيطرة على اقتصاد العالم والحفاظ على نظامه العالمي وعدم خروج إرادة الدول عن إرادته، وذلك ما نبهت له مؤسسة راند :

« إن الإقدام على تطبيق هكذا سيناريو سيكون له تبعات ثقيلة على اكرانيا كما قد يضع مصداقية الولايات المتحدة على المحك. يمكن أن يؤدي إلى خسائر بشرية وجغرافية تفوق طاقة أكرانيا، علاوة على تدفق اللاجئين. أخيرا قد يؤدي إلى ابرام سلام غير منصف لأكرانيا على المدى البعيد. » [112]

تلك هي إذن الاستراتيجية التي تبنتها واشنطن قبيل اندلاع الحرب، واتبعتها بعض الدول الأوروبية مثل بريطانيا بغية إثارة القلاقل في الداخل الروسي وضرب اقتصادها أملا

[110] Ukraine entre guerre et paix
[111] Ibid.
[112] Ibid.

في انهيارها وتفككها، واكرانيا كانت جزء من الاستراتيجية الأمريكية، دورها ينحصر في استفزاز روسيا لجرها للحرب ثم فرض عقوبات عليها، أي أن الغرب كان يبحث عن ذريعة لفرض تلك العقوبات، وسنلاحظ أنه منذ الأيام الأولى لاندلاع الحرب، أقرت الدول الأوروبية حزمة عقوبات بصفة سريعة ومتعاقبة يبدو وكأنها حاضرة مسبقا في انتظار الشرارة الأولى.

يمكن تلخيص مراحل سيناريو تفكك الاتحاد الروسي كما يلي :

أولا : تكثيف كييف للضربات والاعتداءات ضد إقليم الدونباس.

ثانيا : دخول روسيا الحرب.

ثالثا : فرض حزم من العقوبات تهدف لخنق الاقتصاد الروسي.

رابعا : تملل وتذمر الشعب الروسي وتمرده على نظام بوتن.

خامسا : تفكك الاتحاد الروسي إلى دويلات.

سادسا : حصول أكرانيا على عضوية حلف شمال الأطلسي.[113]

توجد إشارات عديدة داخل الحرب الروسية الاكرانية تثبت نية الغرب وكييف لخلق نوع من الاضطرابات داخل روسيا قد تنهي حياة بوتن السياسية. في أيلول 2022 أصدر زيلينسكي مرسوما يحرم على نظامه التفاوض مع روسيا حتى يرحل بوتن عن السلطة. إن مطلب زيلينسكي إضافة إلى أنه يعكس رغبة الكتلة الغربية الجامحة في سقوط بوتن ولكنه يكشف انفصال هذا الرئيس عن الواقع، يتحدث بغرور فاق كل الحدود لأنه مطمئن بدعم واشنطن وحلفاءها، إلا أن هذا الدعم سيؤدي إلى مزيد من دمار بلده وتشريد شعبه. سرعان ما نصحت واشنطن زيلينسكي بسحب هذا المرسوم فهو سيزيد من تعقيد الحرب المعقدة أصلا، ثم من هو زيلينسكي حتى يطالب بتنحي فلاديمير بوتن رئيس روسيا الاتحادية التي تعتبر قوة عظمى في العالم بعد الولايات المتحدة الأمريكية، يبدو واضحا أن الدعم السخي

[113] Ibid.

الذي تلقاه أعمى بصيرته، غير أن ثقته بالغرب بدأت تضمحل شيئا فشيئا عندما طال أمد الصراع وألح على واشنطن قبول عضويته في الناتو فكان الرد سلبيا.

إن تحمل الاقتصاد الروسي للعقوبات أثبت للدول الغربية أن اقتصادها ولئن لم يكن قويا مثل الصين أو الولايات المتحدة او ألمانيا فإنه مرن قادر على امتصاص الصدمات، وذلك ما حصل خلال الأشهر الأولى من الحرب حيث توهم الغرب أن اقتصاد روسيا لن يصمد تحت وقع العقوبات وبالتالي فالحرب لن تطول بل ستدوم بضعة أيام أو أسابيع ستنتهي بانتصار كييف والكتلة الغربية، ولكن ما حدث هو سيناريو عكسي انقلب على الغرب فتورطوا في حرب استنزاف وورطوا معهم زيلينسكي الذي اعتقد هو أيضا أن العقوبات ستؤدي إلى تركيع روسيا وهو ما لم يحدث، وعليه فإن زيلينسكي لم تقع مغالطته من طرف الدول الغربية كما كتب ذلك جاك بو في كتابه "*أكرانيا بين الحرب والسلم* " بل الغرب وزيلينسكي أساءوا التقدير، وحسبوا أن روسيا بوتن هي نفسها روسيا يلتسن.

سيناريو انهيار روسيا لم يحدث فلم يتبقى للغرب سوى مواصلة مد كييف بالسلاح ودفعها للحرب، كما أن زيلينسكي تورط ولا يمكنه التراجع فهو بين المطرقة والسندان، مطرقة الغرب وسندان المحيطين به من القوميين المتطرفين الذين لن يقبلوا بالتفاوض مع روسيا ولو قبل زيلينسكي بذلك ربما ستتم تصفيته.

يصف بوتن الحرب الروسية الأكرانية بالعملية العسكرية الخاصة، فهي في نظره ليست حربا أو محاولة لغزو أكرانيا بالكامل، بل هي مهمة محدودة ذات أهداف واضحة، تتمثل في تحرير إقليم الدونباس وضمه للاتحاد الروسي ونزع سلاح كييف. يرى بعض المحللين والمتابعين لبدايات الحرب أن فشل القوات الروسية في احتلال كييف فتح شهية الغرب لدعم نظام زيلينسكي بالسلاح، واعتقدوا أن إصرار الأوكرانيين في الدفاع عن كييف ونجاحهم في دحر الجنود الروس إشارة تكشف أن الجيش الروسي ليس قويا بما يلزم، فتعالت أصوات في وسائل الإعلام الغربية تدعي أن الجيش الروسي ضعيف وليست له عقيدة قتالية كالتي لدى الأكران وبالتالي هزيمته قد تكون ممكنة. ولكن توجد رؤية أخرى تتعارض مع الأولى مفادها أن الجيش الروسي لم يكن هدفه احتلال كييف لأنه وببساطة لا يمكن احتلال مدينة تضم 3 ملايين نسمة بعشرين ألف جندي فقط، ومن ثم فإن الغاية الحقيقة لهذا العدد من

القوات هو ارباك حكومة زيلينسكي واحداث نوع من الصدمة قد تدفعه للتفاوض وذلك ما حدث فعلا، حيث خرج يوم 25 شباط للإعلام وهو مذعور ومرتبك يدعو بوتن للتفاوض، وفي الأثناء اتصل بوزير الخارجية السويسري (سويسرا كانت دائما دولة محايدة) اقنازيو كاسيس Ignazio Cassis للتوسط من أجل التحضير لقمة سلام بين روسيا واكرانيا. قبلت موسكو على عجل دعوة زيلينسكي للسلام وهو ما يميط اللثام عن حقيقة أن روسيا كانت منذ البداية تفضل الحل الديبلوماسي على الحل العسكري، ولو كانت ليها أطماع لغزو كل أكرانيا لما قبلت بالتفاوض ولديها عتاد عسكري يفوق عتاد أكرانيا. رفضت الدول الأوروبية إحلال السلام بين روسيا وأكرانيا مفضلة الحرب، وأبلغت زيلينسكي أن أوروبا وواشنطن مستعدون لمد جيشه بالسلاح والعتاد اللازم لإلحاق الهزيمة بالجيش الروسي، ومن هنا تتضح نوايا الغرب التي ترجمتها دراسة مؤسسة راند. عندما فشل سيناريو انهيار الإتحاد الروسي بصفة سريعة وضعوا خطة بديلة تتمثل في إطالة أمد الصراع عسى أن يكون الوقت كفيلا بوقوع تصدع داخل نظام بوتن او تذمر من الشعب، فليس الفرنسيون أو البريطانيون أو الألمان هم الذين يحاربون إنما الأوكرانيون، ثم إن الحرب ليست في أوروبا بل بجوارها وبالتالي لا ضرر من إطالة أمدها والتضحية بالشعب الاكراني من أجل اشباع غرور الغرب وتحقيق أحلامه الطائشة على حساب الآلاف من الأرواح البشرية.

بداية من آذار 2022 انطلقت حملة بقيادة القوميين واليمينيين في حكومة زيلينسكي لتصفية كل الشخصيات التي كانت تسعى لحلول سلمية مع موسكو والقبول بالتفاوض، دنيس كرييف الذي وكلت إليه مهمة ترأس المفاوضات مع موسكو تم اغتياله في 5 آذار 2022، كذلك فلوديمير ستورك الذي اتصل بالمفاوضين الروس للتوصل إلى تسوية تم اغتياله في 2 آذار 2022.

لعب الرئيس التركي رجب طيب اردغان دورا هاما في بدايات الحرب ولولا تدخل رئيس الوزراء البريطاني بوريس جونسون لتوصل الطرفان إلى اتفاقية سلام، إلا أن جونسون سرعان ما سافر إلى كييف وحذر زيلينسكي من القبول بالوساطة التركية والتفاوض مع روسيا وإلا سيتوقف الغرب عن دعمه بالسلاح. يتضح أن الغرب لم يكن يسعى للسلام وحقن الدماء بل رغب بقوة في تأجيج الوضع وتعقيد الحرب، لأن السلام سيكون بمثابة الانتصار

الاستراتيجي لروسيا وهمهم هو إذلال روسيا من خلال أكرانيا، وهنا نشير لما صرح به وزير الخارجية الإسرائيلي في آذار 2022 نفتلي بينت :

« الدول الغربية تعيق تحقيق السلام في أكرانيا وتجهض كل محاولة تفاوضية. »

وسائل الإعلام الأكرانية أكدت أيضا أن الغرب لا يريد السلام ويرغب في استمرار الحرب. وبناء على ذلك تحولت العملية العسكرية الخاصة إلى حرب بالوكالة، فالغرب يخشى من التصادم المباشر مع روسيا وجاءته فرصة من السماء تتمثل في محاربة الأوكرانيين عوضا عنه.

خريطة توضح المناطق التي سيطرت عليها القوات الروسية خلال الأيام الأولى من الحرب، باستثناء القرم التي انضمت إلى الاتحاد الروسي سنة 2014.

المناطق التي يسيطر عليها الجيش الروسي منذ تشرين الثاني 2022

اعتقدت الدول الغربية أن إطالة أمد الحرب سيرهق روسيا ولكن ما حدث هو العكس، فالغرب هو من أرهق واستنزف، فهو لم يقدر على مجاراة نسق الحرب، الجيش الروسي يستخدم ما بين 35 و40 ألف قذيفة يوميا، أما الجيش الامريكي فقد استخدم في حروبه سواء في أفغانستان أو العراق 3 آلاف قذيفة فقط، وما تنتجه المصانع الأمريكية في شهر يستخدمه الجيش الروسي في يوم واحد، فأصبحت مخازن الدول الأوروبية شبه فارغة من الذخيرة، وأصبحت تفكر في بناء مصانع لمضاعفة الإنتاج، مما يدل من دون أدنى شك أن الغرب لم يكن متهيئا لهذه الحرب وحسب أنها ستكون حربا قصيرة وينتهي كل شيء. يرى بعض المحللين أن الجانب الروسي اعتقد أن الحرب لن تكون طويلة هو أيضا، لكن الدعم الغربي ومقاومة الأكران ورطت روسيا في حرب استنزاف، فروسيا والغرب وقعا في الفخ بعينه. لا يسعنا القول أن روسيا ستستنزف لأنها بلد يتمتع بوتيرة تصنيع للسلاح تفوق بمراحل الوتيرة الغربية، إضافة إلى اكتفائه الذاتي في معظم الموارد، فروسيا بلد حتى ولو عزل عن العالم فلن يواجه مشاكل اقتصادية كالتي واجهها الغرب وذلك ما أثبته واقع الحرب، فمثلا التضخم في الدول الغربية مرتفع أكثر مقارنة بروسيا، كما أن الاقتصادي الروسي بقي مستقرا ولم تؤثر فيه العقوبات كثيرا، بل إن بعض الدول الغربية تتحايل على العقوبات من أجل الحصول على النفط الروسي.

لقاء الرئيس بوتن مع نظيره الفرنسي ايمانويل ماكرون يوم 8 شباط 2022

حجم الطاولة التي جمعت بين الرئيسين اخذ حيزا واسعا من الجدل في وسائل الإعلام الغربية بين التهكم والسخرية.

الفصل الثاني عشر:

البروباغندا الغربية ومستقبل الحرب

إن الحرب الإعلامية تلعب دورا هاما أثناء القتال الدائر على الأرض، غرضها إحداث نوع من الارباك النفسي والرفع من العزيمة أو تثبيطها. وذلك ما مارسه الإعلام الغربي وببراعة منذ الساعات الأولى من الحرب، والإعلام الفرنسي في المقدمة مثل قناة LCI و France 5. عندما تشاهد البرامج التي تقدمها هذه القنوات وخاصة LCI ينتابك شعور أن روسيا خسرت الحرب وان الانتصار سيكون حتما حليف كييف، فضلا عن العناوين التي تكتبها هذه القناة فيها تضخيم مبالغ فيه للجيش الأكراني ومدح مفرط للرئيس زيلينسكي، وطمس كلي للحقيقة وتشويه لما يحصل على ارض الواقع. والغريب أن كل الذين يتم استدعاءهم في القنوات الفرنسية او البريطانية أو حتى الألمانية للحديث عن مجريات الحرب يرددون رواية واحدة قوامها أن روسيا دولة معتدية، وانتهكت أراضي دولة جارة ذات سيادة وما على بوتن إلا الانسحاب فورا من الأراضي التي احتلها في الشرق. لا أحد يتطرق إلى ذكر اتفاقية مينسك أو أحداث المايدن التي سرعان ما تحولت إلى صدام مسلح أو العداء الذي يكنه النظام الجديد لموسكو، وكأن بوتن نام واستيقظ في الصباح مقررا غزو أكرانيا هكذا وبلا مقدمات، متناسين أسباب الحرب المباشرة والغير مباشرة.

الجدير بالملاحظة فإن الإعلام الأمريكي يبقى رغم أنه مساند لكييف أفضل بكثير عما عليه حال وسائل الإعلام الأوروبية، فمثلا بعض المحللين الذين يظهرون على قناة LCI يشار إليهم كونهم مختصون في الشأن الروسي ولكن عندما تسمعهم يتحدثون عن روسيا تجد حديثهم منعزل عن الواقع يغردون خارج السرب، فالقضية في نظرهم شخصية وليست موضوعية، كل شخص يعاني من الرهاب الروسي يتم استدعاءه أمام الكاميرا ويخرج ما هو مكبوت في داخله.

وقد زعم بعض دعاة قناة LCI بعد شهرين فقط من الحرب أن مخزون روسيا من الصواريخ شارف على الانتهاء، ولكن مع إطالة أمد الحرب ما انفكت روسيا تضرب المنشآت العسكرية الأكرانية بالصواريخ، بل إنه توجد مواقع لم يتم قصفها في بدايات الحرب أقدمت على قصفها فيما بعد، وهذا دليل يكشف أن الصناعة الروسية العسكرية نشطة وتجاري بقوة نسق الحرب.

إن هذه البروباغندا الغربية التي تحاول التقليل من القوة العسكرية الروسية والرفع من شأن القوة العسكرية الأكرانية لم تخدم كييف بقدر ما أمدها بمعلومات مضللة ووقعت في فخ قاتل، عنوانه أن روسيا دولة ضعيفة وجيشها غير محترف وبالتالي هزيمتها ممكنة، حتى أن الساسة الغرب وقعوا في هذا الفخ فهم يتحدثون عن هزيمة روسيا قبل انتهاء الحرب مثل الرئيس الأمريكي جوزيف بايدن ووزير خارجيته أنطوني بلينكن، وهم محسوبين على الصقور الذين يعبرون عن أحلام وأماني لا عما يوجد فوق الأرض. ولعل الهجوم الخاطف ضد القوات الروسية في أيلول 2022 الذي انتهى باسترجاع جزء كبير من مقاطعة خاركيف جعل زيلينسكي ومن يحيط به يعيشون حالة من جنون العظمة واعتقدوا أنه يمكن هزيمة روسيا بسهولة، وما فتئ الإعلام الغربي بسبب هذه الحادثة يطبل للجيش الأكراني وهذا خطأ فادح انجر عنه تقدير سيئ للخصم فضلا عن الغرور الذي أصاب زيلينسكي إلى درجة أنه زعم أن بوتن سيهرول ليطلب منه العفو بعد ما سمي بالهجوم المضاد.

لقد فوجئ الغرب بصمود الاقتصاد الروسي ونفس روسيا الطويل في الحروب وكأنهم لم يطلعوا على تاريخ روسيا الحربي، فهذا البلد عاش أزمات خانقة وكوارث اجتماعية واقتصادية فظيعة فضلا عن مساحته الجغرافية الشاسعة، عوامل أثرت على نفسية الروس وطبائعهم، وجعلتهم يتحلون بصبر عظيم اثناء الحروب معولين على عامل الزمن، فمفهوم الزمن بالنسبة للروسي يختلف عما هو عليه لدى الفرنسي أو الألماني أو الإنجليزي، وذلك يعود بالأساس إلى مساحة روسيا الهائلة. عندما استرجعت القوت الأكرانية مقاطعة خاركيف بطريقة خاطفة آمن الغرب بقدرات الجيش الأكراني بحسم المعركة لصالحه، فانطلق يضخ الأسلحة لحكومة كييف وعزم على تدريب الجنود الأوكرانيين واطلاق عمليات تجنيد واسعة في جميع أنحاء أكرانيا وابتعدت الدول الغربية أكثر عن خطاب السلام لتتمسك بخطاب

التجييش وقرع طبول الحرب، حيث صرحت أرسولا فون دير لاين Usula von der layne مفوضة الاتحاد الأوروبي يوم 14 أيلول 2022 عقب استرجاع خاركيف :

« نحن الآن في وقت يجب أن تفعل فيه العزيمة لا التهدئة [114]. »

دليل واضح يكشف ان الغرب سقط في فخ البروباغندا التي روجت لها وسائل إعلامه، مفادها أن كييف تسير نحو طريق الانتصار على روسيا، فصرفوا أموال طائلة من أجل تسليح كييف، وكما أشرنا آنفا، فإن الدول الغربية تريد محاربة روسيا بأيادي أكرانية، فلا سبيل للحديث عن السلام أو إمكانية المفاوضات، بل إنهم سيحاربون روسيا إلى آخر جندي أكراني كما أعلن ذلك وزير الخارجية الروسي لافروف.

يجب التنويه ها هنا أن استرجاع القوات الأكرانية لخاركيف قد يكون خسارة لروسيا ولكن بالنسبة لكثير من المختصين في الشأن العسكري يقولون إن الجيش الروسي راهن على خسارة الأرض من أجل كسب الوقت. وهو ما حصل في الحقيقة، فالجيش الروسي فضل الانسحاب والحفاظ على أرواح جنوده ويتراجع إلى الخلف وكسب الوقت، مما يعني أن الروس لم يهزموا من طرف القوات الأكرانية بل انسحبوا بإرادتهم، إنه انسحاب استراتيجي، وذلك ما غفل عنه الغرب وأكرانيا واغتروا بنشوة الانتصار، في حين ضحت روسيا بخاركيف لتبني دفاعات شديدة التحصين في مقاطعة لوغانسك ودونيتسك وزبوروجيا وخيرسون.

[114] Ukraine entre guerre et paix

خطاب فون دير لا ين امام البرلمان الأوروبي 14 أيلول 2022.

إن إطالة أمد الصراع جعل من القيادة العسكرية الروسية تلجأ إلى استراتيجية تدمير متواصل وحثيث المزيد من الموارد العسكرية والاقتصادية والبشرية لأكرانيا، إنها استراتيجية عسكرية سوفياتية طورها الكسندر سفاتشين Alexandre Svetchine كاتب عسكري ومنظر روسي سوفياتي توفي سنة 1938. العقيدة العسكرية لسفاتشين تقوم على تقوم على مفهوم استنزاف الخضم، استنزاف الموارد، وذلك ما قامت به الآلة العسكرية الروسية، كلما طال أمد الصراع كلما ضاعفت روسيا تدمير البنية الأساسية لأكرانيا، مستهدفة القدرة الصناعية والاقتصادية للبلاد *destroy the industrial and economic potential*.

عقيدة سفاتشين العسكرية متأثرة إلى حد كبير بالفلسفة الماركسية، مفادها أن استراتيجية الحرب تتغير مع الظروف المحيطة والعوامل المتوفرة على الأرض، وكلما ظهرت ظروف جديدة وتوفرت معها عوامل مغايرة يجب وضع استراتيجية مختلفة،[115] وهو ما طبقته القيادة العسكرية الروسية في أكرانيا، فالدعم العسكري الغربي السخي دفعها لتغيير الاستراتيجية أكثر من مرة والاعتماد أكثر على القوة النيرانية للمدفعية، والجيش الروسي معروف بقوة مدفعيته، أيضا الاعتماد على الصواريخ وخاصة الفرط صوتية لتدمير الأهداف المحددة، استراتيجية غايتها الحفاظ على الجنود وتقليل الخسائر. إن قواعد هذه العقيدة لا يمكن تطبيقها خلال وقت قصير لأن تدمير القدرة الصناعية والعسكرية فضلا عن الموارد البشرية يتطلب زمنا طويلا وبالتالي فإن إطالة أمد الحرب تحول إلى رغبة روسية، وذلك يندرج ضمن الحرب الدائمة من أجل مزيد من التحييد والتدمير. النظام الأكراني حتى خلال الحرب لا يزال يطمع في الحصول على عضوية حلف الناتو أو الاتحاد الأوروبي، ويرفض مراجعة نفسه.

لا ننكر أن الحرب الروسية الاكرانية كان سببها الرئيسي ازمة إقليم الدونباس ولكن السبب الغير مباشر يتمثل في رغبة كييف الجامحة للانضمام إلى الناتو وقطع أواصر التقارب الثقافي والتاريخي نهائيا مع موسكو، وكنت قد شاهدت مقطعا من مسرحية هزلية لزيلينسكي علما وأنه جاء من عالم التمثيل يدعو فيه المتفرجين إلى نسيان اللغة الروسية وتعلم اللغة

[115] Svetchine sur le site de l'académie militaire russe.

الإنجليزية. إذن هذا الإصرار الأكراني للتوجه غربا قابله إصرار روسي لتدمير البنية الأساسية لأكرانيا وتحويلها إلى قرش بلا انياب، فضم إقليم الدونباس للاتحاد الروسي الغني بالموارد الطبيعية والمنجمية سيجعلها دولة فقيرة بنصفها الغربي الذي يخلو من تلك الثروات المتواجدة في الشرق، والغرب لن يقبل بضم دولة مدمرة تماما وفقيرة.

عقيدة سافيتش تحيلنا إلى عقيدة عسكرية ثانية تعتبر امتدادا للأولى تسمى بالعملية العميقة deep operation صاغها جنرالين سوفياتيين خلال فترة ما بين الحربين وهما ميخائيل توكهاتشيفسكي و فلاديمير تريندافيلوف. حسب هذه العقيدة فإن العدو يمثل نسقا متكاملا يضم أنظمة متصلة ببعضها البعض، فالعدو الذي يرجى تحييده ليس هدفا ماديا محددا في الزمان والمكان بل هو يشبه الآلة المتكونة من قطع عديدة، لا يمكن تحييدها خلال عملية واحدة. وتبعا لذلك ينحصر الهدف الأساسي للعملية العميقة في تقويض تماسك النظام من الداخل، وخاصة على الصعيد التشغيلي من خلال احداث صدمة، تتحقق هذه الصدمة بتظافر جملة من العوامل. أولها العامل الجغرافي بضرب العمق وتدمير مسالك الاتصال والتخزين، وذلك ما أقدمت عليه القيادة العسكرية الروسية منذ بداية الحرب وتضاعف أكثر بداية من سنة 2023. ثانيا العامل الزمني وهو يقتضي التدمير الممنهج للعناصر المتفاعلة فيما بينها، ونقصد العناصر الذي يتكون منها النظام، مع المحافظة على عنصر المفاجئة. ثالثا العامل المعرفي الذي يتمثل في مغالطة القسم أي نشر معلومات عسكرية مغلوطة ومضللة عن قدرات الجيش الروسي وذلك يندرج ضمن إطار المفاجئة ومباغتة العدو وإرباكه وخلق نقاط ضعف داخل نظامه.

لو عدنا إلى ساحة المعركة اليوم سنجد تطبيقا حرفيا لعقيد سفاتشين وعقيدة توكهاتشيفسكي وتريندافيلوف، وهاتين العقيدتين يتطلبان حيزا كبيرا من الزمن حتى يتحقق الهدف الأخير ألا وهو تحييد كلي للعدو بتدمير القدرة العسكرية والإقتصادية، وهذا يتطلب سنوات طويلة لا أشهرا معدودة، فلا يوجد أفضل من الحرب الدائمة لشل طاقات الخصم واقناعه بعدم جدوى الاستمرار في الحرب والقبول أخيرا بالتفاوض. في عديد من المناسبات ترتفع أصوات تدعو إلى تسوية للحرب الروسية الأكرانية، إلا أن روسيا تعلن أن أسس السلام مع كييف غير متوفرة، ليس لأن موسكو ترفض التفاوض، فبوتن اعتقد أن الحل مع كييف

يجب أن يكون ديبلوماسيا وليس عسكريا، صحيح أن اتفاقية مينسك 1 و 2 كانت هشة ولكن لم النظام الجديد المدعوم من الغرب هو من أخل بتعهداته ورأى في الاتفاقية نوعا من الرضوخ والهزيمة، ومن جانب الآخر أعتقد ان السند الغربي سيخلصه من شر روسيا حسب قول زيلينسكي، إذن السلام غير ممكن بسبب انفصال النظام الاكراني الحالي عن الواقع، فهو يزعم مرار وتكرار أنه قادر على الحاق الهزيمة بروسيا. حتى ولو تدخل الناتو بجيشه وبعداته فلن يكون قادرا على حسم الحرب، فعندما تصرح الصحف و المخابرات البريطانية المعروفة بعدائها الشديد لروسيا، أن التحصينات التي شيدها الروس في مقاطعات لوهانسك ودونيتسسك وزابوروجيا وخيرسون بعد الانسحاب من مقاطعة خاركيف، لم يعرفها العالم منذ ثمانين عاما، فهي تتميز بالشمولية والبراعة والدقة، وهو تلميح غير مباشر بأن هزيمة روسيا غير ممكنة، فالقادة العسكريين في الغرب لم يروا طيلة خبرتهم العسكرية حصونا دفاعية بتلك الصلابة والقوة والمرونة، وقد أدرك الناتو بخبرته وعداته أن إخراج القوات الروسية من كل الأراضي الأكرانية يعد أمرا مستحيلا، إلا إذا رغب خوض حرب عالمية ثالثة وهذا ما لا يرغب فيه قطعا.

بناء على ما تقدم فإن تدريب الناتو للجنود الأوكرانيين الهدف منه ليس إلحاق الهزيمة بروسيا ولكن تحقيق بعض الأهداف الاستراتيجية على الأرض كاسترجاع محطة زبوروجيا النووية لأنها أكبر محطة لتوليد الطاقة أو ميناء مدينة ماريوبول الغنية بالثروات المنجمية كمصنع آزوف ستال للصلب، والغرب لا يسعه في المستقبل ضم كييف للاتحاد الأوروبي وهي لا تملك على الأقل هذه الثروات، وفي حالة عدم تمكن اكرانيا من استرجاع هذه المناطق الحساسة فما عليها سوى نسيان حلمها بالانضمام إلى الاتحاد الأوروبي من جهة، ومن جهة ثانية يجب عدم التفكير في الحصول على عضوية الناتو لأنها أصبحت دولة فاقدة السيادة، وعلى ضوء هذا القول فإن حفاظ روسيا على الوضع الحال المتمثل في السيطرة على معظم إقليم الدونباس يعتبر في حد ذاته نجاحا استراتيجيا لموسكو وتحقيقا لهدف رئيسي يكمن في خلق وضعية سياسية معقدة لا تخول لكييف التخلص الكلي من روسيا والارتماء في أحضان الغرب، وهذا ما يؤرق إدارة بايدن منذ بداية الحرب، فالقبول بالتفاوض هو بمثابة الانتصار لروسيا، ولعل تجميد الحرب سيكون الحل الوحيد.

ما يسعني سوى القول أن هذه الحرب ستطول، فالغرب بعنجهيته وغروره وكبريائه لا يسعه القبول بالتفاوض مع روسيا فهي في نظرهم بلد يمثل محور الشر، يجب إذلال روسيا كما تم اذلالها في فترة التسعينات، يجب ان تقبل بصيغة سلام غربية وغير ذلك سيكون كابوسا بالنسبة لهم، لان مجرد التفكير في صيغة سلام بالشروط الروسية البوتينية هو بداية لنهاية السيطرة الغربية على العالم واقتصاديات الدول النامية.

صورة من التحصينات الدفاعية الروسية على امتداد إقليم الدونباس سميت " باسنان التنين " غايتها إعاقة تقدم المشاة والآليات العسكرية.

اسنان التنين هي جزء من منظومة دفاع متكاملة سميت "بخط سروفيكين" نسبة للجنرال الروسي سيرغي سروفيكين.

خاتمة :

إن الحرب الروسية الأكرانية تحولت إلى حرب باردة بين الشرق والغرب، وقد تتحول في أي لحظة إلى عالمية ثالثة إذا أقدم أحد الطرفين المتنازعين على القيام بحسابات خاطئة. الطرف الروسي حافظ منذ بداية الحرب على ضبط النفس وكان نسق التصعيد الروسي منسجم مع نسق التصعيد الغربي، أي في كل مرة تعلن الدول الغربية مساندة كييف بنوعية من الأسلحة تقوم موسكو باستخدام أسلحة مضادة تكسر معادلة ترجيح كفة كييف في الحرب. ولقد لاحظ العديد من الخبراء العسكريين في الغرب أن الجيش الروسي سنة 2023، ليس هو نفسه سنة 2022، يعني أنه حسن من آدائه وطور من تكتيكاته الدفاعية والهجومية، مما يعني أننا أمام حرب متغيرة، والحرب المتغيرة هي الحرب التي كلما طال أمدها كلما استخدم فيها أساليب وتكتيكات جديدة، وهذا يعد معضلة في نظر الدول الغربية، لأنها عولت على ما يسمى بهجوم الربيع، ربيع 2023 لحسم الصراع ووضع حد للحرب وذلك من خلال دفع بوتن للتفاوض والقبول بالشروط الغربية. حاليا وأنا بصدد انهاء هذا الكتاب هجوم الربيع متعثر، والغرب يصفه بالبطيء، وموسكو تعتبره فاشلا، ولا يسعني سوى القول أن الغرب في مأزق حقيقي، لأنه لو قبل بتجميد الحرب أو بالتفاوض فذلك سيعد انتصارا لروسيا، وهم لا يحتملون فكرة الجلوس مع بوتن وهو في وضعية قوة. إنهم يدركون سلفا أن زيلينسكي ورجاله لن يكونوا قادرين على طرد القوات الروسية نهائيا من جميع أنحاء إقليم الدونباس، حتى ولو تدخل الناتو بجيوشه فلن يتمكن من حسم المعركة، وبالتالي فهم يرجون استرجاع بعض المناطق الحيوية ليكون موقفهم صلبا خلال التفاوض. المعضلة الثانية تكمن في رفض نظام زيلنسكي فكرة التفاوض إلا بعد مغادرة القوات الروسية الأراضي المحتلة حسب تعبيره، وهذا موقف صبياني منفصل تماما عن الواقع، فكيف يمكن لموسكو بعد خسائر هائلة في الأرواح والمعدات وتعرضها لأعتى وأشد العقوبات الاقتصادية لم يعرفها التاريخ بالخروج

من الدونباس، حتما فإن خروجها يساوي تفكك الاتحاد الروسي، وتبعا لذلك، يستحيل أن تسلم روسيا في الدونباس ولو كان الثمن خوض حرب عالمية ثالثة.

بعض المراقبين في الغرب يعتقدون أن واشنطن لم تعطي لكييف الأسلحة الكافية لإنهاء الصراع وهزيمة روسيا، وهذا أيضا موقف صبياني يعبر عن أماني، لأن المعادلة في الحرب الروسية الاكرانية قائمة على الرد بالمثل، ادخال سلاح جديد يقابله سلاح آخر قد يقوضه أو يقلل من تأثيره، والجدير بالذكر فإن الروس يتكيفون مع الظروف ويطورون التقنيات والأساليب من تحجيم قدرات الخصم العسكرية عملا بالعقيدة العسكرية التي أقرها سفاتشين. حسب رأيي المتواضع فإن الحرب ستنتهي إما بالحسم العسكري الروسي وذلك بعد القضاء على معظم الجيش الأكراني وعتاده فتصبح الأرض مفتوحة أمام الجيش الروسي والطريق ممهدا صوب كييف، وإما بفوز دونالد ترامب بالرئاسة الأمريكية في تشرين الثاني 2024.

محتويات الكتاب

مدخل 3

الباب الأول 5

قراءة جيوسياسية وفلسفية للعلاقات الروسية الغربية منذ انهيار الإتحاد السوفياتي إلى نهاية العقد الأول من القرن الواحد والعشرين.....5

الفصل الأول.....6

فكرة تفوق العرق الأبيض وظهور علم الجيوبوليتك.....6

الفصل الثاني 14

حيثيات اللعبة الكبرى منذ انهيار الاتحاد السوفياتي إلى مطلع الألفية الثانية 14

الفصل الثالث 28

فلسفة بول فولفوفيتز وصعود حزب المحافظين 28

الفصل الرابع 32

توسع الناتو شرقا وانقلاب سياسة الاتحاد الروسي.....32

الفصل الخامس.....37

الصراع من أجل عالم متعدد الأقطاب 37

الفصل السادس 46

من مرحلة التصدي للإهانة إلى مرحلة تحدي الهيمنة.....46

الباب الثاني 50

فصل ثان من تحدي الهيمنة من خلال صراع الارادات 50

الفصل السابع.....51

التقارب بين اكرانيا والغرب واندلاع أحداث المايدن 51

الفصل الثامن 59
صعود التيارات اليمينية المتطرفة وبداية ظهور التصدعات داخل المجتمع الأكراني 59
الفصل التاسع 65
حرب الدونباس ومحاولات روسيا الديبلوماسية من أجل حل الأزمة.....65
الفصل العاشر 73
سياسة كييف ما بعد اتفاقية مينسك.....73
الفصل الحادي عشر.....78
سيناريو انهيار الاتحاد الروسي وتحول العملية العسكرية الخاصة إلى حرب بالوكالة 78
الفصل الثاني عشر: 88
البروباغندا الغربية ومستقبل الحرب.....88
خاتمة : 96
المراجع.....100

المراجع

المراجع العربية

روسيا الأوراسية زمن فلاديمير بوتن، د. وسيم خليل قلعجية، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى 2016.

روسيا ومواجهة الغرب، د. باسم خفاجي، المركز العربي للدراسات الإنسانية، الطبعة الأولى 2008.

المراجع الفرنسية والانجليزية

Essaie sur la formation de l'esprit publique Allemand, jaque Flache.

Stéphane Rosière, « Géographie politique, géopolitique et géostratégie: distinctions opératoires », L'information géographique.

Philippe Subra, Géopolitique de l'aménagement du territoire, Paris.

Friedrich Ratzel, Géographie politique.

Aymeric Chauprade, Géopolitique : constantes et changements dans l'histoire.

Nicholas Spykman, Geography of The Peace.

Jacques Baud, opération Z.

Le grand échiquier, Zbigniew Brzezinski, Bayard édition.

Géopolitique de la Russie, David Teurtrie.

Alexandre Prokhanov, La tragédie du centralisme.

Ukraine entre guerre et paix, Jacques Baud.

Lowery Robert, Culturel and Ethology.

Guillaume Malaurie, L'Ukraine et la Russie selon Soljenitsyne sur www.historia.

Poutine, Maître du jeu, Jacques Baud.

Jeffrey Mankoff, Russian Foreign Policy: The Return of Great Power Politics, Rowman & Littlefield, 2011.